4

خطط خاصة

في صيف عام 2003، كان شاب أمريكي يدعى أندرو ب. ن. إردمان، من روشستر نيويورك، يعمل في الطابق الثاني من القصر الجمهوري، على الضفة الغربية لنهر دجلة في وسط بغداد، لدى سلطة التحالف المؤقتة. كانت على باب المكتب لافتة كتب عليها: «وزارة التعليم العالي والبحث العلمي». لقد كان إردمان الموظف في وزارة الخارجية الذي يبلغ السادسة والثلاثين من عمره، الحائز على شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة هارفرد، مستشار الوزير العراقي، وفعلياً كان هو الوزير.

كان درو إردمان رجلاً طويلاً، عريض المنكبين، حيث كان يمارس رياضة التجذيف سابقاً، حاد الذقن، ذا شعر قصير رمادي اللون، كثيف الشاربين، مما كان يضفي على وجهه شكل موظف بريطاني استعماري من حقبة عام 1925 (إلى أن اختفى شارباه في وقت ما من الصيف). لم يكن ينام إلا بضع ساعات في الليل، في عربة مقطورة مشتركة خلف القصر. كان أول ما يفكر فيه إردمان عندما يستيقظ كل صباح قبل السادسة دون منبه هو: سايغون، تباً. كان زميله في الغرفة، وهو بريطاني اسمه فيليب يسأله: «كيف حالك اليوم دكتور إردمان؟» وكان إردمان يجيبه: «يوم آخر في الجنة». كان القلق بشأن كل ما عليه القيام به في أثناء اليوم يلاحقه قبل أن يبدأ اليوم.

عندما قابلت إردمان في منتصف تموز، كان غاضباً من اجتماع كان لا يزال قد حضره في وقت سابق من ذلك اليوم، وحاول فيه ألا يهين رئيس إحدى الجامعات، عندما سأله عن معنى «ميزانية التشغيل» في وسط الجلسة الخامسة أو السادسة التي يناقش فيها الموضوع. وقبل ذلك بأسبوعين، كان أحد أفراد الحماية الخاصة بإردمان، المتخصص جيفري ويرشو، البالغ من العمر 22 عاماً، قد قتل بطلقة أطلقت عن قرب في رأسه، بينما كان ينتظر؛ إردمان ليخرج من أحد اجتماعاته في جامعة بغداد، وقد ساعد إردمان في إخلاء الجندي المحتضر.

لقد جعلتني ملامح إردمان وبنيته الرياضية أستعد للقاء بيروقراطي إنكليزي مهذب. لكنه بدلاً من ذلك، كان يتأمل، وهو مستلقٍ على سريره النقال في العربة المقطورة، يعبث بسكين الجيش السويسري، وقد رفع قدميه على حقيبة عسكرية صوفية، وامتلأ مكتبه بزجاجات مياه الشرب، وعلب الطعام الجاهز الفارغة، وكتب عن الشرق الأوسط لم تقرأ بعد. كان يتحدث بجمل تأملية طويلة، غالباً ما تقطعها أفكار أو توضيحات ثانوية، ثم تحل محلها نبرة أسرع وأكثر تفجراً، عندما يبدأ في الحديث عن شيء أغضبه أو أبهجه. وكما وصف إردمان نفسه، فقد كان حاد المزاج يمكن استنزاف أعصابه بسرعة.

لقد تمت سرقة الوزارة التي كان مسؤولاً عنها، شأنها شأن جميع المباني الحكومية الأخرى تقريباً، ونهب كل ما فيها حتى الأسلاك والأنابيب، حتى إن المبولات قد اقتلعت من جدران الحمامات. كان الموظفون ذوو المناصب الرفيعة في الوزارة، وكذلك رؤساء الجامعات العراقية، جميعاً من الأعضاء البارزين في حزب البعث، وقد تم فصلهم. وقد قتل أحدهم، وهو رئيس جامعة بغداد ذو السمعة السيئة، وكان طبيباً، في عيادته، بينما كان يكتب وصفة طبية. لقد نهبت جميع صفوف الجامعات ومكتباتها في العراق، كما سرقت آلاف الكتب وأجهزة الحواسيب، وحتى النوافذ نزعت من إطاراتها، وتركت المكاتب رأساً على عقب في مهب الريح بين الغبار وحطام الزجاج. كان إردمان يحاول إنهاء السنة الدراسية المضطربة، وكان الطلاب يقدمون امتحاناتهم في صفوف أشبه بالفرن لشدة الحر دون أجهزة تكييف أو مراوح أو إضاءة ثابتة.

بعد انهيار الدولة العراقية، لم يكن هناك شيء يمكن أن يحل محلها.

كنت أريد أن أعرف كيف أعدت دراسة التاريخ درو إردمان للقيام بالعمل الذي كان يحاول إنجازه في بغداد؟ ما هي القياسات التاريخية التي كانت في ذهنه؟ البريطانيون في العراق المحتل؟ أم الأمريكيون في ألمانية المحتلة؟ خطرت في ذهن إردمان فكرة جعلته يسخر من نفسه، وقال: «أنا رمز تاريخي، ولا أستطيع التفكير بطريقة تاريخية. لقد مرت علي أوقات لم أذكر فيها ما فعلت قبل ثمانٍ وأربعين ساعة. أنا أحاول إنه كاختبار لنفسي. هل أستطيع أن أتذكر ما فعلت أمس؟ في النهاية أستطيع التذكر، لكن ذلك كان يتطلب مني

جهداً. أعتقد أن هذا ليس بالوضع الجيد. يجب أن تكون قادراً على تذكر ما قمت به في أثناء الأربع والعشرين ساعة الأخيرة».

من الكتب المفضلة لدى إردمان، الذي كان يحاول أن يجد وقتاً لقراءته من جديد في بغداد كتاب للمؤرخ الفرنسي مارك بلوش بعنوان: «الهزيمة الغريبة»، وهذا الكتاب يعد بمنزلة مراجعة أولى للحسابات بعد الهزيمة الفرنسية في الحرب الخاطفة التي شنها النازيون في ربيع عام 1940. كان بلوش قد خدم في الجيش الفرنسي في الحربين العالميتين، ثم انضم إلى المقاومة قبل أن يقوم النازيون بأسره وتعذيبه ثم إعدامه. وفي أثناء حديث إردمان عن عمله في العراق، استشهد أكثر من مرة بمقطع من كتاب الهزيمة الغريبة، كان قد وضع عليه إشارة في كتابه القديم ذي الغلاف الورقي، كتب بلوش: «إن أبجدية مهمتنا، هي تجنب هذه المصطلحات المجردة الكبيرة في محاولة لاكتشاف الحقائق الملموسة المخبأة وراءها، وهي البشر».

كانت الفوضى القاتلة التي أعقبت الغزو الأمريكي للعراق عبارة عن قصة من مصطلحات مجردة وحقائق ملموسة، وكانت بين هذه المصطلحات والحقائق مسافة أكبر من ثمانية آلاف ميلٍ تفصل بين واشنطن وبغداد، ومع ذلك، فقد نتج عن أفكار مهندسي الحرب عواقب مدمرة ملموسة كالمكاتب المدمرة، والقنابل محلية الصنع. يجب فهم هذه العواقب قبل كل شيء فيما يتعلق بحياة البشر، العراقيين والأمريكيين، الذين تم الإلقاء بهم جميعاً في التاريخ العنيف للحرب.

قبل الذهاب إلى الحرب، كان درو إردمان قد قام بالعديد من الأبحاث التاريخية ذات الصلة. وقد ساعده المقطع الذي أخذه من كتاب الهزيمة الغريبة في إعداد أطروحته التي قدمها إلى جامعة هارفارد، التي كانت بعنوان: «بحث الأمريكيين عن النصر في القرن العشرين». وهذه الأطروحة تبحث في كيفية تغير مفهوم تحقيق الأهداف السياسية بطرق عسكرية في أذهان الأمريكيين في أثناء هذا القرن. فقد كانت الهوة بين القوة العسكرية والسياسة، مشكلة تعاود الظهور عند التحول من حالة الحرب إلى السلم، في أثناء القرن، وأصبح ردم هذه الهوة هدف الجهد الواعي المتنامي. وقد أظهر إنشاء معاهد، مثل الكلية الحربية العسكرية، الأمن القومي وهيئة تخطيط السياسة في وزراة الخارجية الأمريكية،

الإدراك المتزايد لدى المستويات العليا في الحكومة والجيش بأن عواقب الحرب عملية معقدة، لا تقل أهميتها لتحقيق النصر النهائي في المعركة عن أهمية النصر على أرض المعركة قال إردمان: «إن اللغة التي نعيشها اليوم حول إستراتيجية الخروج هي عبارة عن (كليشة)، كما أن التركيز على اللعبة النهائيةَ «كليشة» أخرى إن تلك «الكليشات» حديثة، وهي جزء من التطور التاريخي».

اختتمت أطروحة إردمان برد الفعل تجاه فييتنام وظهور مذهب باول حول «القوة الحاسمة». كتب إردمان: لكن هذا المفهوم الأخير، لم يعد الحل الوحيد والنهائي لمشكلة تحقيق النصر أكثر من المفاهيم السابقة التي كانت سائدة في القرن العشرين (كما أظهر التدخل في البلقان، حتى عندما كان يكتب ذلك). لقد كانت عملية التعلم في القرن العشرين متقطعة ومترددة. كتب إردمان: «لذلك فقد كان الأمريكيون -قادة ومواطنين على حد سواء- غير مهيئين لتخيل عواقب استخدام القوة عندما حلت الأزمة الآتية، كما يحصل بالتأكيد في هذا العالم المأساوي».

كانت الأطروحة استكشافية وغير حاسمة، وقد أظهرت اهتماماً بالغاً بالنماذج والقيم التي شكلت تفكير الأمريكيين حول الحرب والسلم. لم تكن الأطروحة من النوع الذي يكتب للحصول على عمل. وكان إردمان يصفها دائماً بأنها «فاشلة».

حصل إردمان على درجة الدكتوراه عام 2000 وترك العمل الأكاديمي فوراً. لم تكن اهتماماته تصب في هذا المجال. وكان في شخصيته شيء من معاقبة الذات والهوس. ليس قضاء العمر في تحليل التاريخ العسكري كافياً؛ إنه من الأكاديميين الذين عليهم معرفة كيف سيتصرفون لو وجدوا تحت إطلاق النار. كان في نسخته من كتاب الهزيمة الغريبة نص آخر عليه إشارة لفت نظري إليه: «المشكلة الحقيقية لدينا نحن الأساتذة هي أننا منغمسون في مهماتنا اليومية. يستطيع معظمنا القول ببعض العدل: إننا كنا عمالاً جيدين. فهل من الصحيح أيضاً أن نقول: إننا كنا مواطنين جيدين؟».

في أوائل عام 2001، كان إردمان يوشك على السفر إلى كوسوفو لستلُم العمل الأول الذي استطاع الحصول عليه -«أي شيء، أكياس معبأة بالحبوب. إلى هذا الحد أريد أن أكون

بعيداً عن العمل الأكاديمي»- عندما وردت إليه مكالمة من ريتشارد ن. هاس، الذي كان قد تم تعيينه حديثاً مديراً لتخطيط السياسة في وزراة الخارجية الأمريكية من قبل كولن باول. كان هاس قد درس مرة مع مستشار إردمان في أطروحته، إرنست ماي، وقد سمع باسم إردمان من فيليب زيلكو، المدرس بجامعة فرجينيا، الذي كان زميل رايس في الولاية الرئاسية الأولى لبوش. بحلول حزيران، كان إردمان في واشنطن، يعمل في مكتبه، حيث كان قد أجرى مسبقاً أبحاثاً مكثفة لأطروحته. في هارفارد كان متخصصاً في أيزنهاور، ودخل الحكومة بالروح القديمة للسياسي المستقل. قال إردمان: «إن في هذا بعض الإفراط في التفاؤل»، «لكنّ هناك تقليد سابق في أوساط السياسة الخارجية بعدم التحزب، خدمة للمصلحة الوطنية».

في 11أيلول 2001، كان إردمان في مكتبه في وزارة الخارجية يكتب مُسوَدَة وثيقة سياسية عن دور أمريكة في العالم، وكان في الواقع في وسط جملة تتحدث عن تهديد إرهابي، عندما رن الهاتف: كانت زوجه، تخبره عن الهجمات على مركز التجارة العالمي. كان تأثير ذلك في حياة إردمان شديداً، ليس فقط في كمية وكثافة العمل الحكومي الذي يقوم به (فقد كان مكلفاً بإعداد ملف ضد الإرهاب في التخطيط السياسي)، وإنما في شعوره بأن ما كان يفعله يمكن أن يحدث فرقاً: «لقد أكد حكمة قراري في ترك العالم الأكاديمي».

في صيف عام 2002، عندما أصبحت الحرب ضد العراق سياسة غير معلنة للإدارة الأمريكية، طلب هاس من إردمان كتابة تحليل لإعادة الإعمار، بعد الحرب في القرن العشرين، في خمس عشرة صفحة مفردة السطور ومصنفة، وهذا حجم كبير فيما يتعلق بمذكرة من مذكرات الخارجية الأمريكية- طبق إردمان أفكاره في مذكرته على سلسلة من الحالات المدروسة من الحربين العالميتين، مروراً بالصراعات الأحدث في البوسنة وكوسوفو. كان من استنتاجاته الرئيسة أن النجاح بعيد المدى يعتمد الدعم الدولي. أما في المدى القريب، فشرح لي ذلك عندما التقاني في بغداد: «الأمن هو أساس كل شيء»، وهذا كان يعتمد جزئياً على وجود عدد كافٍ من القوات: «كان ذلك هو اهتمام المشروع، أما ما كان يهمني فهو: هل نحن مستعدون للقيام بما تتطلبه مرحلة ما بعد الحرب؟ ليس علم الصواريخ بالتحديد».

وفي ذلك الخريف وزع باول مذكرة على تشيني ورامسفيلد ورايس، وقد قال عنها إردمان: «ربما لا صلة لها بالموضوع. وربما لم تقرأ».

أما العمل الفعلي فقد كان في مكان آخر؛ ففي أيلول، تقريباً في الوقت الذي كانت مذكرة إردمان تمر به شكلياً في واشنطن، على الطرف الآخر للنهر المطل على البنتاغون، كان مكتب مديرية الشرق الأدنى والخليج الشمالي في جنوب آسية، يعد ملحقاً في المكاتب الفارغة في الطابق الأعلى من موقعه في الطابق الرابع، فالمساحة الإضافية تلائم وتفصل الناس المتدفقين، الذين تم إحضارهم للعمل في التخطيط للعراق، سميت الوحدة الجديدة مكتب الخطط الخاصة. وكانت تحت إشراف دوغلاس فيث، وكيل وزارة الخارجية للسياسة، ونائبه ويليام لوتي. كان فيث، المحامي في واشنطن، خارج الحكومة نحو عقدين من الزمن؛ فقد تم طرده عام 1983 من قبل ويليام كلارك مستشار الأمن القومي لدى ريغان، ثم أعاده ريتشارد بيرل إلى البنتاغون. كانت أنشطة فيث وكتاباته السياسية مكرسة بشكل كبير لدعم السياسات المتشددة لحزب الليكود، كان يدين بعمله الجديد المهم إلى صديقه ومديره السابق بيرل، الذي رفض أن يشغل المنصب، ثم أوصى رامسفيلد بهذا الرجل غير المعروف نسبياً. فقال رامسفيلد لبيرل: «حسناً، سآخذ فيث، والأفضل أن يكون جيداً كما قلت»، وهكذا فقد تولى دوغلاس فيث هذا المنصب الحساس الخاص بعراق ما بعد الحرب في الإدارة الأمريكية، وبعد الغزو، سيدعي أن اسم الخطط الخاصة المبهم كان ضرورياً: «في ذلك الوقت، كانت تسمية المكتب بمكتب التخطيط العراقي يمكن أن يختصر من جهودنا الديبلوماسية». لكن هذا التسويغ لم يفسر سبب إحداث مشروع وزارة الخارجية عن مستقبل العراق علناً، دون نتائج عكسية، لماذا لم يكن من الممكن رؤية جهود التخطيط لما بعد الحرب تهديداً محتملاً، يقوي يد الإدارة الأمريكية في الأمم المتحدة؟!.

لكن فيما يخص مكتب الخطط الخاصة، لم تكن السرية مناسبة فقط، بل كانت ضرورية أيضاً. حتى يمكن للمرء أن يقول: إنها كانت ضرورية لأسباب غيبية. كان الرجل الذي أتى به فيث ولوتي لإدارة العملية هو أبرام شولسكي، المساعد السابق لبيرل، والمستشار السابق في مجلس خبراء وزارة الدفاع الأمريكية، في مكتب التقويم. كان شولسكي، زميل وولوفوفيتز في السكن في كورنل وشيكاغو، قد كتب مقالاً قصيراً عام 1999 باسم «ليو شتراوس وعالم

الاستخبارات (التي لا يقصد بها الذكاء)» «Leo Strauss and the World of Intelligence (By Which We Do Not Mean Nous)». كان شولسكي يعتقد أن كتابات أستاذه السابق ليو شتراوس، أدوية مفيدة لتصلب جماعة الاستخبارات الأمريكية، فبدلاً من الاعتماد على الإحصائيات وعلم الاجتماع التي تقوم على معايير عالمية، ينبغي لمحللي الاستخبارات العودة إلى الفلسفة السياسية العملاقة، مثل Thucydides الذي فهم أن طبيعة الأنظمة تختلف بشكل جوهري. (فكلمة «نظام» المترجمة من كلمة politeia اليونانية تشير إلى نماذج المجتمع وقادته؛ وقد لا يكون من قبيل المصادفة أن إرشادات الإدارة حول السياسة في العراق، قد أصبحت «تغيير النظام»). لا يمكن فهم الاستبداد في صورة للديمقراطية، كما أن ميل المحللين الموجودين للمحاولة (المعروف باسم «صورة المرآة») تضمن أنهم سيخفقون في إدراك الطبيعة الأساسية لنظام كنظام آية الله الخميني حين يحقق تقدماً. يعتمد المستبدون الخداع، مما يجعل عمل المحلل أكثر صعوبة، لكنه أكثر متعة من الناحية الفلسفية، وهذا يعيد إلى الذهن علاقة فكرة شتراوس بالكتابة المبطنة أو المخفية في النصوص السياسية العظيمة: «تحذر وجهة نظر شتراوس حتماً من أن الحياة السياسية قد تكون مرتبطة بالخداع ارتباطاً وثيقاً»، كتب شولسكي: «إنها تقترح في الواقع أن الخداع هو المعيار في الحياة السياسية، والأمل بعدم قول شيء من التوقعات، وبتحقيق سياسة قادرة على التنفيذ هو الاستثناء».

وليس من البعيد عن هذه النظرة إنشاء مكتب يخفي عمله خلف اسم مبهم عمداً، مثل «الخطط الخاصة»، هناك صورة مرآة لنوع آخر يحدث هنا: ليس خطأً رؤية عدوك انعكاساً لنفسك، ولكن الخطأ محاولة أن ترى عدوك كما يرى نفسه، إلى أن تصبح انعكاساً له. «حين تنظر إلى هاوية»، كتب نيتشه، الذي يكرهه الشتراوسيون، «فإن الهاوية تنظر إليك أيضاً». وقد حدث شيء كهذا بالفعل في مكتب فيث قبل إعداد الخطط الخاصة، في وحدة سابقة، هي وحدة تقويم مكافحة الإرهاب؛ كان وولفوفيتز هو صاحب فكرة هذه الوحدة، وهي تعود إلى عام 1976 والفريق ب، مجموعة الخبراء الخارجيين (الذين عينتهم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، التي كانت تضم وولفوفيتز)، التي أتت باستنتاجات تحذيرية أكثر بكثير حول السوفييت من وكالات الاستخبارات. أما هذه المرة، فقد كان الهدف هو جمع معلومات استخباراتية، حول أسلحة الدمار الشامل والإرهاب، وإمكانية ارتباطها بالعراق. قاد العملية

ديفيد ورمسر، مؤلف كتاب (Tyranny's Ally) «حليف الطاغية»، وورقة إستراتيجية «Clean Break» «انفراج كامل» التي انبثقت عنه. قام ورمسر وشريكه، ف. ميشيل معلوف، الذي خدم تحت إدارة بيرل، وفي وزارة الدفاع في عهد ريغان (جميع الطرق المؤدية إلى الخطط الخاصة تعود إلى بيرل)، بجمع بيانات عادية، معظمها من منشقين قدمها المؤتمر الوطني العراقي، لإثبات فرضيته: بوجود صلات لصدام بالقاعدة، وأنه من الممكن أن يسلم أسلحة الدمار الشامل إلى الإرهابيين. كان ورمسر ومعلوف يعملان بشكل استنتاجي وليس بشكل استقرائي: أي أن الفرضية صحيحة؛ وأن الحقائق ستظهر لتؤكدها، بل أكثر من ذلك، فقد كانت معظم البيانات مشكوكاً فيها، أو حتى تم رفضها من قبل وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة الاستخبارات الدفاعية، ومكتب وزارة الخارجية للاستخبارات والأبحاث، ووزارة الطاقة. فقد كان المدنيون في وزارة الدفاع الأمريكية يرون أن الطرق التي استخدمتها وكالات الاستخبارات مشكوك فيها بشكل عميق، وكان للمحللين بشكل عام سجل طويل من الفشل في الشرق الأوسط. كانت هناك حاجة ملحة لطريقة جديدة، تبدأ بالاعتماد على الفلسفة السياسية، بدلاً من معطيات علم الاجتماع.

في الوقت الذي كان فيه فيث ولوتي يجهزان مكتب الخطط الخاصة، كان ورمسر قد تحرك سلفاً للعمل لدى جون بولتون، وكيل وزارة الخارجية لمراقبة التسلح والأمن الدولي، الموظف الوحيد رفيع المستوى، في وزارة الخارجية، من المحافظين الجدد. (سيؤول مصير ورمسر إلى مكتب نائب الرئيس، مما يشير إلى أن الحركة الجانبية في إدارة بوش قد تكون أكثر أهمية من الحركة العمودية). في النهاية تم إلغاء التصريح الأمني لمعلوف. لكن عمل وحدتهم الاستخباراتية، التي تم حلها، قد دمج في الخطط الخاصة، بشكل نقاط على الأوراق السياسية وصفحات power point، ثم أرسله لوتي وشولسكي مباشرة إلى البيت الأبيض، حيث كان للمحافظين الجدد حلفاء لدى كبير موظفي تشيني، آي. لويس «سكوتر»، وليبي، ومدير مجلس الأمن القومي للشرق الأوسط لدى رايس، وإيليوت أبرامز. ومع غزو هذه الطرق الجديدة للتحليل الاستخباراتي المتطلبات القديمة المتعبة للتدقيق، فقد سمحت هذه الصورة للموظفين ذوي العقليات المتشابهة التي انتشرت في جزر مهمة، عبر أرخبيل الأمن القومي «لنتاج» الاستخبارات، وتأثيره في السياسة لإيجاد طريقه إلى العملية العادية

بـين الوكالات، التي يمكن فيها لمن لم يتغير أن يكون من بين المشاركين، ويمكن أن يعترض. كانت طريقة كافية للعمل، لو كنت تعلم ماذا تريد أن تحقق.

يصعـب أن تحدد بدقة؛ فطـوال فصلي الخريف والشتاء من ذلـك العام، استمر مكتب الخطـط الخاصة بالتخطيط. وقد ادعى لوتي فيما بعد وجود مئات الصفحات من الوثائق، لكنهـا لم تنشـر قط. كان لوتـي، النقيـب السابق في البحريـة، ومساعد نويـت غينغريش، ومستشـار تشيني من المؤيدين المتحمسين للحرب ضد العراق، وهو شخص ذو مزاج هوسي في بعض الأحيـان، بحيث يمكن أن يبكي علناً؛ حماسـاً للموضوع. وذات مرة، نعت الجنرال المتقاعـد أنتوني زيني، الرئيس السابق للقيادة المركزية، ومبعوث بوش إلى الشرق الأوسط، بالخائـن بسبـب إبدائه شكوكاً عن الحرب ضـد العراق. وكان زملاء لوتـي يسمونه «Uber Luti». كان الهـدف الرئيس للمكتب تحت قيادته هو وشولسكي الألطف، هو إدارة المعلومات والتحكـم في السياسـة. وكان شولسكي يوجه الكتابة لمذكرات حـول العراق، وأسلحة الدمار الشامل والإرهاب وقفاً لنقاط حديث يتم الإشراف عليها بحزم.

وظـف مكتـب الخطط الخاصة خـبراء في شؤون الشـرق الأوسط؛ للتفكـير في سياسة العـراق بعد الحرب، من بين هؤلاء الخـبراء، كان مايكل روبن، الباحث الإيراني الشاب في معهـد المؤسسات الأمريكي الذي ألقى محاضرات في جامعـات القدس وكردستان العراق. وكذلـك هارولد رود الذي يدعمه برنارد لويس الأستـاذ بجامعة برنستون الذي أُحضر من مجلس الخبراء الداخلي، التابع لوزارة الدفاع، مثل شولسكي. كان رود وروبن مقربين جدًا من الجلبي، والمؤتمر الوطني العراقي، وحين زار أحد أعضاء المؤتمر الوطني العراقي وزارة الدفاع الأمريكية، وجد رود في مكتب وضعت على جدرانه أحاديث نسبت إلى محمد، وكانت قـد جمعت بعـد وفاته بمئة عـام. كان رود يفكر في أن من طرق تغيير الشـرق الأوسط، أن تقـوم إيران بتغيير الأحرف الفارسية إلى الرومانية، كما فعل أتاتورك باللغة التركية. سأل العراقي: «لكن كيف ستقوم بذلك هارولد؟». فأجاب رود «إنه مفهوم».

بـدأ رود دراسته للإسلام بالسنة، كما أخبر أحد الأصدقاء، لكنه سرعان ما قرر أنها تفتقـد إلى مادة فكرية، ليس فيها مجال للتفكير الأصلي. ثم التقى فؤاد عجمي وغيره من

العـرب الشيعة، وحين بدأ بقراءة علوم الدين والتشريـع الشيعية وجد رود ديناً للمثقفين، مثـل اليهودية. كمـا أنه اشترك في الفكـرة، التي قدمها كتاب ورمسر، عـن إعادة المملكة الهاشميـة في العـراق، بحيـث يتسلَم الأمير الحسـن، شقيق الملك حسـين العرش، ويكون الجلبي رئيساً للوزراء، وبهذا يعود العراق إلى الحكومة التي كانت قبل عام 1958، بزعامة شيعيـة. حتـى إن رود قارن الجلبي مـرة بالحكيم: «في البداية لم يصدقـه الناس، لكنهم أدركوا حكمته فيما بعد».

كان تقارب الأفكار والاهتمامات والمشاعر، بين بعض الأمريكيين اليهود والعراقيين الشيعة من الحبكات الثانوية الأكثر فضولية لحرب العراق، وقد وجه أحد المسؤولين الأمريكيين مرة هـذا السـؤال بشكل مباشـر إلى صديق عراقي: «هـل تساءلت يوماً عن سبـب رغبة يهودي أمريكـي متدين بمساعـدة الشيعة في العراق؟» وأجاب عن سؤالـه بنفسه بقصة. لقد حاول هـو وزوجه إنجاب طفل بصعوبة، فتوجه إلى الحَـبر؛ ليسأله إن كانت المعالجة المتقدمة تقع ضمـن تعاليم اليهوديـة المتشددة. فقدم الحبر مباركته. لكن المسـؤول أراد معرفة تسويغه، وشـرح له الحـبر ذلك. وعندما ذهب المسـؤول إلى الشرق الأوسط في أثنـاء حرب العراق، وجـد رجـل دين شيعياً، وسأله السـؤال ذاته، فكان التسويغ الديني هـو التسويغ ذاته أيضاً. وجدتهـا! هذه التجربة أكدت اعتقاده بأن الشيعـة واليهود، الأقليات المضطهدة في المنطقة، يمكـن أن تقوم بعمل معـاً، وأن الشيعة العراقيين التقليديين (علـى عكس النوع الثيوقراطي الأممي الذي أسر إيران) يمكن أن يقودوا إلى إعادة توجيه العرب نحو أمريكة وإسرائيل.

ارتقـت هذه الفكـرة في السلسلة السياسية في البنتاغـون. وذات مرة قال دوغلاس فيث لمكية: «أنتم الشيعة في العراق لديكم فرصة تاريخية. افعلوا كل ما بوسعكم، لكن لا تتحدثوا عنه». وكان عدم الحديث عن ذلك يناسب المفهوم الشيعي للتقية -النفاق دفاعاً عن الإيمان، والكذب المسموح به على الغرباء لحماية الفئة الدينية المضطهدة-. كما فسرت التقية الاسم المضلل والعمل المخفي لمكتب الخطط الخاصة الذي كان مكاناً للفئة المضطهدة الأخرى التي وصلت حديثاً إلى السلطة، المحافظين الجدد.

ولكن تدليلهم للشيعة العراقيين لم يمتد ليشمل العالم العربي والإسلامي كله، الذي كان مفكـرو البنتاغون يرونه مرضاً لا فرصة. وكان هارولد رود يذكر بارتياح أن بعض أصدقائه

المسلمين قد نشؤوا خجلين مما وعظوا به باسم عقيدتهم، لدرجة أنهم كانوا يترددون في أخذ أطفالهم إلى المسجد. وقد خرج أحد الموظفين الحكوميين الذي كان يتعامل بين حين وآخر مع فيث ورود والآخرين، بتشبيه لموقفهم تجاه الإسلام: «إن شعورهم نحو المسلمين يشبه مكافحة الإنجيليين في الجنوب للمثليين، فهم يشعرون أنهم أناس يجب إنقاذهم، لكن فقط إذا تصرفوا حسب شروطنا. كره الخطيئة، ومحبة المخطئ».

من بين هؤلاء المضاربين الأيديولوجيين، كان أحمد الجلبي سياسياً متمرساً، وأصبح دليلاً لهم في مشروع تحويل العراق. قال أحد زملاء الجلبي: «كانوا يظنون أن أحمد الجلبي كان مخلصاً لمبادئ المجموعة». «كانوا شباناً مثقفين، لكنهم لم يكونوا أذكياء سياسياً. فخدعهم أحمد بسهولة».

لكن ماذا بشأن المهمة الشاملة للتخطيط للعراق بعد الحرب؟ كان مستقبل الخارجية الأمريكية في مشروع العراق يكافح، وكانت مجموعة عمل بين الوكالات تجتمع بشكل منتظم برعاية مجلس الأمن القومي؛ لكن لم تكن هناك بعد سياسة لمرحلة ما بعد الحرب. كم ستبقى الولايات المتحدة في العراق؟ هل سيكون العراق تحت احتلال عسكري أمريكي أم تحت إشراف دولي؟ متى سيتم تشكيل حكومة عراقية جديدة، وكيف؟ ومن سيديرها؟ كانت الصحافة تخمن، لكن لم يكن أحد يعلم بالفعل؛ لأن إدارة بوش لم تكن تستطيع أن تقرر. سمحت رايس وستيفن هادلي، مستشارة الأمن القومي ونائبها، أن تبقى الأسئلة مفتوحة، بينما أخفقت الدبلوماسية في الأمم المتحدة، وتدفقت القوات إلى الشرق الأوسط، وكانت الحشود تجتمع للحرب بشكل لا يمكن التراجع عنه.

في عام 1997، وقع الرئيس كلينتون وثيقة غامضة سميت قراراً رئاسياً توجيهياً 56، أنشأت مجموعة تخطيط بين الوكالات «لإدارة عمليات الطوارئ المعقدة». وصل القرار 56 إلى حد الاعتراف بأن عمليات حفظ السلام التي جرت في تسعينيات القرن العشرين، لم تتم بشكل جيد، وأن التدريب المكثف والتخطيط المبكر كانا ضروريين، وأن هذه الجهود كانت بحاجة لتنسيق رفيع المستوى، على مستوى المسؤول الثاني في الوزارات والوكالات المهمة. وبعد أن استلم الرئيس بوش منصبه بازدراء واضح لحفظ السلام، كان أول توجيه وقع عليه في 13 شباط 2001، يلغي نظام مجموعات العمل بين الوكالات الذي

وضعه كلينتون، وخفض مستوى مجموعة «عمليات الطوارئ» إلى مستوى بيروقراطي كان سيضعف بالتأكيد، وهذا ما حدث.

في أوائل عام 2003، أعد رائد في البحرية من العاملين في مجلس الأمن القومي، مذكرة حلل فيها مستويات القوة، وحجم السكان في عمليات حفظ السلام السابقة، وإذا تم استخدام كوسوفو أنموذجاً، فسيلزم نصف مليون جندي لتأمين العراق. رأت رايس المذكرة (وليس من الواضح إن كانت قد أرتها لبوش)، لكنها لم تؤثر في التخطيط. اختلفت وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، بشأن كل موضوع يتعلق بمرحلة ما بعد الحرب، من دور المنفيين في حكومة انتقالية، إلى دور الأمريكيين في توفير الأمن، «كان هذا أهم الأشياء التي لم تحدث في العراق، وحدثت في كوسوفو»، قال موظف في البنتاغون لديه خبرة في كلتا العمليتين: «لم يجبر مجلس الأمن القومي الوزارتين على تسوية خلاف معروف كان عميقاً جدًا بين الوكالتين. كانوا كأنهم يغطون الخلافات بالأوراق، بدلاً من التعامل معها». بالنظر إلى المدة التي سبقت الحرب، حدد ريتشارد هاس إخفاقاً في عمل رايس بوصفها مستشارة للأمن القومي. «ليس مستشار الأمن القومي وسيطاً نزيهاً فحسب، بل موازناً نزيهاً أيضاً. ومن عمله إثارة نقاشات، ربما لا تدور بين الناس الجالسين حول الطاولة، فماذا لو كانت هناك آراء أفضل لم يتم تقديمها؟» وقد أثبتت رايس، التي كانت مسؤولة عن تنسيق السياسة، أنها أكثر مهارة في الثناء على الرئيس من مهارتها في إلزامه باعتبار مدى النقاشات وحلها بطريقة كاملة. في اجتماعه مع العراقيين المنفيين في أول كانون الثاني، عندما بدأت مشكلات العراق بعد الحرب بالظهور، التفت بوش إلى رايس، وقال: «سيقوم جيش إنساني باللحاق بجيشنا إلى العراق، صحيح؟» فأكدت رايس ذلك، وقالت: صحيح، لكنها نظرت لأسفل بطريقة توحي بأنها كانت تعرف كم كانت الإجابة غير مناسبة.

في تشرين الأول 2002، تقدم ليسلي جيلب، رئيس مجلس العلاقات الخارجية، إلى رايس وهادلي باقتراح للمساعدة؛ حيث يشكل المجلس ومجموعتا تفكير أخريان هما: مؤسسة التراث، ومركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، ائتلافاً لجمع قائمة بالخبراء الذين يمكنهم تقديم حقائق وخيارات لمرحلة ما بعد الحرب، وسيكون عملهم مرضياً من الناحية السياسية، حيث يأتي من تنوع فكري، ولايصر على خطة واحدة يمكن أن تضع الإدارة في

الزاوية. قالت رايس: «هذا هو ما نريده بالضبط». «فسنكون مشغولين جدًا، بحيث لا يمكننا أن نقوم بذلك بأنفسنا». لكنها لم تكن تريد مشاركة مؤسسة التراث التي كان لها موقف ناقد لفكرة الحرب ضد العراق. «ليقم بذلك معهد المؤسسات الأمريكي».

أما كريس ديموث، رئيس معهد المؤسسات الأمريكي الذي يستمد منه المحافظون الجدد في الإدارة الأمريكية الدعم والكثير من الموظفين، فلم يقبل ولم يرفض الفكرة حين طرحها جيلب، وفي 15 تشرين الثاني، اجتمع ممثلو مجموعة التفكير مع رايس وهادلي في مكتب رايس بالبيت الأبيض؛ ذهب جون هامر من مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، وهو يتوقع إقناع رايس بالفكرة، لكن الاجتماع كان غريباً منذ البداية: فقد بدا أن رايس لم تهتم إلا بديموث، وكما لو أن البيت الأبيض كان يحاول أن يبيع شيئاً لمعهد المؤسسات الأمريكي وليس العكس، فعندما بدأ جيلب بوصف فكرته، عبر مكبر صوت الهاتف من نيويورك، قاطعه ديموث قائلاً: «انتظر لحظة. ما كل هذا التخطيط والتفكير للعراق بعد الحرب؟» والتفت إلى رايس قائلاً: «هذا بناء أمة، وقد قلت: إنك ضد ذلك. قلت ذلك في الحملة، وكذلك قال الرئيس. هل يعلم الرئيس بأنك تفعلين ذلك؟ هل يعلم كارل روف بذلك؟».

لم تكن رايس تستطيع التوقيع دون معهد المؤسسات الأمريكي. وبعد أسبوعين اتصل هادلي بجيلب ليخبره بما كان جيلب يعرفه سلفاً: «لن نتابع في ذلك». وفسر جيلب فيما بعد، «إنهم يظنون أن تلك الأشياء جميعها ستقف في طريق ذهابنا للحرب».

بدت رايس منذ بداية حكم إدارة بوش مهزومة أمام الرجال الذين يفوقونها خبرة، الذين أصبحوا الآن نظراءها البيروقراطيين. كانت رايس موظفة متوسطة المستوى، وخبيرة بالشؤون السوفياتية في مجلس الأمن القومي في عهد بوش الأب، وبعدها حصلت على الوظيفة الثانية في ستانفورد، فقد كانت سيرتها الذاتية صغيرة جدًا مقارنة بالسيرة الذاتية لتشيني ورامسفيلد وباول، وفي أثناء السنتين الأوليين من عملها مستشارة للأمن القومي، لم يكن هناك شيء يوحي بأنها ستصبح مساوية لهم. ففي قضية تلو الأخرى -إيران، كورية الشمالية، وفوق كل شيء العراق- كانت القرارات السياسية لا تتخذ أبداً أو لا تناقش قبل اتخاذها. بدا أن إنجازاتها الوحيدة كانت قربها من الرئيس، ودفاعها

المضبوط والعنيد عنه. في الخارجية الأمريكية التي خسرت الكثير من تلك المعارك السابقة، كان هنـاك شعور بأن تشيني ورامسفيلد يدحرجون رايس. كما بدأ ريتشارد أرميتاج، نائب بـاول، يسمـي مكتبها بـ «العاطـل عن العمل». وقد وجـد أحد المسؤولين رفيعـي المستوى في الإدارة الأمريكيـة صعوبـة في الموافقة بين رايس التي يعرفها على أنهـا امرأة متألقة، وبين أدائهـا الذي بدا ضعيفاً في المكتـب. وقد قال: «إنها تحضر جميع المكونات الصحيحة، خُلق العمـل، أي شـيء يتم اختياره لدفع العمـل، سواء أكان اندفاعاً جنسيـاً أو من أي نوع، إنها تملـك ذلك. يقول الرومان: إن هـذا هو (الطموح). إنها ماهرة فيمـا يتعلق بالتحايل على الناس للحصول على ما تريد؛ لذا فمن الصعب علي أن أراها مديرة غير كفأة».

ومع مرور الوقت، بدأ هذا المسؤول يتساءل إن كان مظهر الضعف مضللاً؟ وبنهاية المدة، حـين تم تعيين رايس بدلاً من باول وزيـرة خارجية، كان المسؤول يتمتع بتقدير مختلف تماماً لعملهـا مستشارة للأمـن القومي. في هذه الحالة، كانت رايس تعلـم تماماً ما تفعله بالفشل باتخـاذ القـرارات عبر العملية بـين الوكالات، والسمـاح بدلاً من ذلك لتشينـي ورامسفيلد بالقيـام بالجولات النهائية حول تلـك العملية. «إما أنها كانت متواطئـة مع الرئيس ونائبه، وإلى درجـة مـا مع وزير الدفاع، أو أنهـا كانت تستخدم وزيري الدفـاع والخارجية لأهداف نائب الرئيس والرئيس». بعبارة أخرى، لم تكن رايس تخيب آمال رئيسها. كانت تلبي رغبته بطريقـة سريعـة بشكل خاص. «كم هو أفضل أن تجعل قراراتـك تتخذ بطريقة تصبح فيها سهلة التنفيذ، بدلاً من أن تكون صعبة التنفيذ، بدلاً من أن يكون لديك مجلس للأمن القومي، فيه مستشار الأمن القومي متواطئ؟ وأن تشد الصوف حول عيني وزير خارجيتك؟».

وفي النهاية، لم يكن مجلس العلاقات الخارجية ومركز الدراسات الإستراتيجية والدولية فقط، ولكن من هم من مجالس الخبراء في السياسة الخارجية والعسكرية- مؤسسة راند، وكلية الجيش العسكرية، والمعهد الأمريكي للسلام، ومعهد الدراسات الإستراتيجية القومية التابـع لوزارة الدفاع - قدموا تقارير لافتة للنظر بسبب الإجماع في آرائهم؛ فالأمن وإعادة الإعمار في العراق بعد الحرب تتطلب أعداداً كبيرة من القوات مدة طويلة، وسيكون التعاون الـدولي ضرورياً. كان هذا هو استنتاج درو إردمان أيضاً. «هذا هو المنطق فقط»، قال راي

سلفاتور جينينغز من المعهد الأمريكي للسلام، الذي كتب تقريرين منفصلين. لكن أياً من التوقعات لم تصل إلى البنتاغون أو المكتب البيضاوي.

أما توماس إي. وايت، وزير الحربية إلى أن طُرد بعد الغزو، قال فيما بعد: «في وزارة الدفاع كانت القضية الأولى أنه علينا أن نضبط هذا الأمر، لذا فإن أي شخص آخر مشتبه فيه، والشيء الآخر هو أن في أذهاننا أن هذه المهمة ستكون بسيطة، ويمكن إدارتها؛ لأنها ستكون حرب تحرير، ولذلك فإن إعادة الإعمار ستكون قصيرة الأجل».

على الرغم من أن نصيحة الخبراء كانت مهمة ويمكن أن تحدث فرقاً، فلم يكن مرحباً بها. ففي البنتاغون، كان المسؤولون في مكتب عمليات السلام والاستقرار (الذي كان سابقاً مكتب حفظ السلام الذي كان كلمة سيئة في البنتاغون أيام رامسفيلد) مستبعدين بشكل منظم من اجتماعات التخطيط بشأن العراق، كما تم تجاهل مذكراتهم. وعلى الرغم من وجود متاعب في مهمة إعادة الإعمار في أفغانستان وترقب الأخرى في العراق، فقد كان البنتاغون يخطط لإغلاق معهد حفظ السلام التابع له في كارليسل بنسلفانيا. في منتصف شباط 2003، قدم رامسفيلد خطاباً في نيويورك بعنوان «ما وراء بناء الأمة». قال فيه: إن عمليات إعادة الإعمار بعد الحرب التي تمت في تسعينيات القرن العشرين قد أنتجت ثقافة تبعية، وإن العراق سيتبع أنموذجاً جديداً، الحد الأدنى مما فعلته الولايات المتحدة في أفغانستان. كانت تجربة المتخصصين في حفظ السلام في هاييتي والبلقان وتيمور الشرقية، مسؤولية فعلية في نظر المخططين للعراق. «كانت القيادة العليا في البنتاغون قلقة جدًا بشأن معرفة موثوقية مدة ما بعد الصراع»، قال مسؤول في وزارة الدفاع: «لأنك لو كنت فيث أو وولفوفيتز لكان همك الوحيد هو تحقيق الحرب». أمضى هذا المسؤول وزملاؤه، الذين كانوا متفرغين للعمل في الإعداد لتلك الطوارئ، شهوراً وهم يعدون للحرب في حالة شديدة من ضعف المعنويات، ومع ذلك لم يكن أي منهم راغباً في الكلام بصوت عالٍ بما فيه الكفاية، داخل المبنى خماسي الأضلاع أو خارجه، للحصول على انتباه رامسفيلد. ومن كان يفعل ذلك كان يري الآخرين الثمن الذي يمكن أن يدفعوه لقاء ذلك.

في شباط، ظهر الجنرال إريك ك. شينسكي، رئيس هيئة أركان الجيش، أمام اللجنة العسكرية في مجلس الشيوخ، وسئل عن متطلبات القوات. وقد حاول جاهداً ألا يجيب عن

السـؤال: لأنه كان عليه أن يكون مدركاً للعواقب، وأخيراً قال شينسكي: إنه، بناء على خبرته في حفـظ السـلام في البلقان، فإن العـراق سيكون في مرحلة ما بعد الحـرب بحاجة إلى ما يقـارب مئـة ألف جندي». وقـد دفع هذا التقديـر وولفوفيتز للاتصال هاتفيـاً بوايت، وزير الحربية. «كان هائجاً؛ لأننا في الجيش لم نضع إليه»، قال وايت: «لم يقدم حججاً أو أسباباً. كان رأيهم دينياً بطبيعته إن الأمور كانت ستجري كما قالوا: إنها ستجري». وبعد عدة أيام، ظهـر وولفوفيتـز أمام لجنة الموازنة وصرح أن تقدير الجـنرال شينسكي «ليس دقيقاً جدًا». وفسر نائب الوزير، «من الصعب إدراك أن توفير الاستقرار في العراق، بعد صدام، سيحتاج إلى قـوات أكبر مـن القوات اللازمة لتنفيذ الحرب نفسها، ولضمـان استسلام قوات الأمن التابعة لصدام وجيشه. يصعب تخيل ذلك».

كان بـول وولفوفيتـز المهندس الفكـري للحـرب، وقد عبر عـن قضية الحـرب بعاطفة وفصاحة أكثر من أي شخص آخر في الإدارة الأمريكية، وكان غالباً يتحدث علناً حول طبيعة الطغيـان البعثـي، وعن المواهب المكبوتة لدى العراقيين، التي تنتظـر أن تتحرر. ولو سمعته، لشعـرت أحياناً أن لديه عشرات الأصدقاء العراقيين المقربين، وربما حتى بعض الأقارب في بغداد والبصرة، مرة قال لمذيع أجرى معه مقابلة وسأله إن كانت الديمقراطية في العراق قد تؤدي إلى حكم إسلامي: «اسمع، نصف العرب من النساء. ومعظم هؤلاء النساء لا يردن أن يعشـن في دولة دينية، والنصف الباقي رجال، أعرف الكثيرين منهم. ولا أظن أنهم يريدون أن يعيشوا في دولة دينية». وقد بدا أن هذا كان صعب التخيل أيضاً.

كان وولفوفيتـز مهتمـاً أكثر من بيرل وفيث، ومن المحافظين الجدد في وزارته، وبالتأكيد أكثر من رامسفيلد وتشيني. كان العراق يشكل له أمراً شخصياً. لم يبدُ متأثراً بجداول أعمال أخرى. لم يكـن هاجسه التحويل العسكري، ودعم حزب الليكـود، وإخضاع الديمقراطيين. ولم يكـن صاحب مذهب ديني مسكون بالرؤى الأخروية حول إعادة أراضي الكتاب المقدس، كان أقـرب ما يكون إلى تحرري في المجموعة. كان يطارد هذا الحوت الأبيض سنوات، وكان سيخسر الكثير إذا أخفق في موضوع العراق. وإلا لماذا وجد كل ذلك صعب التخيل؟

سـواء وافق على خطـة الحرب أم لا، لم يكن وولفوفيتز ليعارض مديره القوي جدًا بشأن الموضـوع الذي كان رامسفيلد يسيطر عليه بقوة، كان وولفوفيتـز مؤمناً حقيقياً، لكنه أيضاً

كان بيروقراطياً نجا من حكومات كثيرة، وعند الحاجة كان أكثر من قادر على الانحناء للحقيقة السياسية، في أواخر تسعينيات القرن العشرين، حين كان تغيير النظام في العراق قضيته المميزة، سار وولفوفيتز خلف الفكرة الضعيفة التي تنادي بالإطاحة بصدام على يد عدة آلاف من أتباع أحمد الجلبي؛ لأنه فهم أن الشعب لم يكن يريد توريط عدد كبير من القوات الأمريكية في القضية، والآن حين أصبحت أمريكة على وشك الذهاب للحرب، وإنهاء العمل الذي شعر مدة طويلة أنه بقي غير مكتمل عام 1991، قبل مصطلحاتٍ مثل: القوة الخفيفة، والالتزام القليل بمرحلة ما بعد الحرب. وقد أخبر الشعب مراراً أن إعادة الإعمار ستكون رخيصة، وأن تكاليفها يمكن أن تسدد من عوائد النفط العراقي. قال هذا إجابة عن نصيحة خبراء من مديري شركات نفط، كانوا يعرفون حالة منشآت النفط العراقية المهملة. كانت تقديرات البيت الأبيض للتكاليف قليلة لدرجة غير معقولة: ففي نيسان، طلب مكتب الإدارة والميزانية من الكونغرس مليارين ونصف مليار دولار فقط لإعادة إعمار العراق بعد الحرب. وحين تنبأ المستشار الاقتصادي لدى بوش لورنس ليندسي علناً أن الحرب قد تكلف ما يقارب 200 مليار دولار -وهو رقم تبين فيما بعد أنه قليل- عُوقب المخالف الوحيد للإدارة الأمريكية علناً، بالإضافة إلى الجنرال شينسكي بسرعة، وطُرد في النهاية. وأخفت الإدارة الأمريكية عمداً توقع التكاليف الحقيقية للحرب عن الشعب، وعن نفسها أيضاً، عبر التأثيرات المغرية لمجموعة التفكير المغلقة، وسيكون هذا تحولاً تاريخياً رخيصاً جدًا. كان وولفوفيتز مسؤولاً عن ذلك شأنه شأن أي شخص آخر.

اعتقد وولفوفيتز، شأنه شأن كنعان مكية في قدرة شعب العراق على تغيير مجتمعهم، وصدق ذلك، مثل مكية، على الرغم من كل ما كان يعرفه عن الشرق الأوسط. حين عُين مساعداً لوزير الخارجية لشرق آسية عام 1982، وترك سياسة الشرق الأوسط إلى سياسة آسيوية كان، كما قال وولفوفيتز: «كأنه يخرج من غرفة مغلقة فاسدة الهواء، إلى نور الشمس والهواء النقي». «شعرت أنني أذهب من مكان في العالم لا يعرف الناس فيه إلا كيف يصنعون المشكلات، إلى جزء آخر من العالم يقوم فيه الناس بحل المشكلات». وها هو ذا بعد عشرين عاماً قد أصبح مؤيداً لا يكل لعراق جديد. لم يجد صعوبة في تخيل وعده، وفي اجتماعات التخطيط، كان يتحدث عن العراق بعد صدام كأنه سيكون مثل بولندة بعد

سقـوط الشيوعيـة، أو مثل «أوروبة الشرقية، لكن فيها عرب»، كمـا قال أحد المسؤولين. وقد قادته رغبته المتحمسـة في الحرب إلى قبول التنازلات التي كانت بالتأكيد ستعرض مكاسب الحـرب للخطـر، وفي النهاية تتحول الصفقات التي يعقدها المـرء مع الآخرين إلى صفقات يعقدها مع نفسه.

وذات مـرة، في منتصـف عـام 2002، زار وولفوفيتـز كابول عقب حادثـة كارثية قامت بهـا مروحيـة أمريكية مسلحة من طراز AC-130 بقصف أربع قـرى أفغانية، وقتلت أربعين مدنيـاً، بينهـم مدعـوون لحفل زفـاف. فغضبـت حكومة حامـد كارزاي الضعيفـة، وكانت السفـارة الأمريكيـة قد أرسلـت المسؤول السياسـي الناطق بالبشتونية لاحتسـاء الشاي مع الناجـين، وحضور الجنازة، والاعتذار. لم يكن هناك شـك في أن حياة الأبرياء قد أزهقت؛ كان الشـيء الوحيد غير المؤكد هو: هل كان سبب الهجوم هو إطلاق النار الاحتفالي أو ربما نيران مضادة للطائرات مـن العصابات في المنطقة؟. لكن عندما التقى وولفوفيتز بموظفي السفـارة، بدأ باستجـواب المسؤول السياسي: «لِمَ تفترض أنه كان هناك حفل زفاف؟ ربما، قـال وولفوفيتـز: كيف تعرف ذلك؟ كان طالبـان قد تنكروا بزي محتفلـين كان هذا حدسه بشأن الحادثة. «يجب ألا نكون سلبيين في الاعتذار، يجب أن نكون أكثر ثقة». استمع الموظفون بإنصات، وكانوا مروعين. وقد قال لي أحدهم فيما بعد: «كان كأنه يختلق الحقيقة الخاصة بـه». كان لدى وولفوفيتز عادة خطيرة هي التغطية على الحقائق غير المناسبة؛ لكي يحافظ علـى صلاحـه. وقد قال أحـد موظفي الحكومة الذيـن عملوا معه في موضـوع العراق: «بول وولفوفيتز، على الرغم من كل صفاته الجيدة، كان لديه قدرة مؤسفة على خداع نفسه؛ لأنه يعتقد في الأمور بشكل عاطفي جدًا».

لذا، فقد كان وولفوفيتز هو الذي أنهى أحد النقاشات العلنية المهمة حول أساسات خطة الحرب حتى قبل أن تبدأ، ولم يكن هناك نقاش آخر، كانت رسالته لشينسكي رسالة للجميع داخل ملاك البنتاغون وخارجه، كان جزاء المعارضة الإذلال والانتحار المهني. وقد قال أحد المسؤولين في سلاح القوات الجوية، كان مشاركاً في التخطيط للحرب فيما بعد: «بعد رؤية ما عمله وولفوفيتز، لا أعتقد أن أحداً سيرفع رأسه، ويظهر أي احتجاج حول ذلك».

كانت تحذيرات شينسكي والخبراء والمعارضين في وزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات المركزية، ومجلس الأمن القومي، والكونغرس، ومجالس الخبراء «صعبة التخيل» فقد كانت محل شك من الناحية الأيديولوجية، وغير مناسبة من الناحية السياسية، وكانت ضد الفكرة العامة لوزارة دفاع رامسفيلد التي كان هدفها الأكثر أهمية هو التغيير العسكري: لمتابعة نشر قوات الوحدات النشيطة بعد الحرب الباردة وتركيز الإستراتيجية والإنفاق على القوات الخاصة، والقوة الجوية، وأنظمة الأسلحة المتطورة. وأصبح حفظ السلام -الذي لم يتم تبنيه بشكل كامل في حكم كلينتون ورفضته إدارة بوش علناً في حملة عام 2000- أثراً غير موثوق لحقبة سابقة. قال توماس وايت: «إن عملية حفظ الاستقرار هي عبارة عن وجود للقوات، ووجود للشرطة وهذه الأنشطة المدنية، وليست من الأشياء الغريبة ذات التقنية العالية، (سيكون لدينا أقمار صناعية، وأسلحة قوية، وسنصطاد هؤلاء الأشخاص في شوارع اليمن الخلفية، إنها قوات على الأرض، وهي غير قابلة للتحويل». كانت أفغانستان، بالقوة الجوية عالية الدقة والعدد الصغير من القوات الخاصة التي تعمل على الأرض مع الميليشيات المحلية، أنموذجاً جديداً رائعاً للحرب. وعند التخطيط لحرب العراق في أثناء عام 2002، ألزم رامسفيلد الجنرال تومي فرانكس من القيادة المركزية بتخفيض قوة الغزو من العدد الأصلي الذي كان نصف مليون (العدد الأقصى في خطة أنتوني زيني، الذي كان قبل فرانك، التي وصفها رامسفيلد بأنها «قديمة وفاسدة») إلى نحو 160.000. وقد تم ذلك جزئياً باختيار وحدات، والتدخل بالبرامج القياسية للانتشار العسكري، للمحافظة على عنصر التخفي، ومتابعة إرسال القوات إلى مسرح الحرب بعد الغزو. ولولا أن فرانكس أبدى بعض المقاومة، لانخفض العدد إلى أقل من 100.000، لكن مراراً وتكراراً، كان الوزير يحصل على ما يريد قهراً.

لم تكن مهمة الخدمات الموحدة أن تقوم ببساطة بتحية قادتهم المدنيين، والسير إلى الحرب، فقد كان لدى فرانكس، الذي كان معروفاً بأنه يحكم بالخوف، وموظفوه التزام تجاه الرجال والنساء الذين تحت إمرته. ومع ذلك لم يسألوا أنفسهم ما الذي يمكن أن يحدث إذا كان رامسفيلد مخطئاً؟ وما الذي يمكن أن يحصل لقواتهم حين تصبح في العراق، دون القوات أو الحماية اللازمة، إن لم تجرِ الأمور كما هو مخطط لها؟. كانت الخطة (أ) تقضي

بقطع رأس الحكومة العراقية بسرعة. ويؤول الأمن إلى بقية الشرطة والجيش العراقيين، وسرعان ما ستصل القوات الدولية، وستغادر معظم القوات الأمريكية بعد أشهر. لم تكن هناك خطة (ب). وقد استنتج كثير من الضباط في القيادة المركزية، أن على رامسفيلد، مهما كانوا يكرهون العمل معه بسبب عجرفته التي لا تهتم بالآخرين، أن يعرف ما الذي يفعله. كانت سمعته في أوجها، في داخل البنتاغون ولدى الشعب، وكان متألقاً في الأحاديث الصحفية، وقاسياً في اجتماعات الموظفين. أما المخطِط الحربي من القوات الجوية، وهو رائد في الاحتياط اسمه غليد تيلور، فقد كان يرى أن نصر رامسفيلد في أفغانستان أساء كذاب الجيش، الذي كان قد تنبأ بالحاجة إلى أعداد كبيرة من القوات هناك. كان كلام شينسكي يبدو نتيجة للحرب الباردة. هكذا كان المستقبل: سيتم النصر في العراق بالصدمة والخوف. وفي أحد الأيام، قام كولونيل قاسٍ في الجيش، كان قد خدم مع الشرطة العسكرية في البوسنة وكوسوفو، بسحب تيلور جانباً وقال: «أيها الرائد، أنت تخدع نفسك». ففي البلقان كان الكولونيل قد رأى أعداداً مبهمة من الفئات، تتنافس على السلطة في الفراغ الناتج عن الحرب، والأمر ذاته يمكن أن يحدث في العراق: فالبلد يمكن أن يتفكك.

كان الجنرال أنتوني زيني، الذي سبق فرانكس في القيادة المركزية، قد توقع ذلك بالضبط. كان قصف التحالف لأهداف عراقية في كانون الأول 1998 قد هز النظام في بغداد، وقد حذر كل من القادة العرب من فراغ السلطة إذا سقط صدام. ولأن زيني أدرك أن مسؤولية ما بعد الحرب ستقع على عاتق الجيش، فقد بدأ بالعمل على خطة لإعادة إعمار العراق؛ لتواكب خطته للحرب. غطت خطة «عبور الصحراء» حماية البنية التحتية، وإغلاق الحدود، والأزمات الإنسانية، والسياسة، والاقتصاد، وحتى القضايا الاجتماعية كدور النساء. وقد قال لي زيني: «يجب أن تكون هذه الخطة متصلة مع الخطة العسكرية. في عام 2000 تركت الخطة مع الجنرال فرانكس، لم تكن كاملة، لكنها كانت قد قطعت شوطاً بعيداً». في الأسابيع التي سبقت غزو العراق، شعر زيني، الذي كان قد تقاعد، أن إدارة بوش لم تكن مستعدة لما كان ينتظرها بعد سقوط النظام، خاصة مع عدد القوات الذي كان يسمع عنه. فدعا القيادة المركزية قبل الحرب بوقت قصير، وقال: «تعلمون أن عليكم نفض الغبار عن خطة عبور الصحراء، ألقوا عليها نظرة فاحصة». فسأل نائب القائد: «عبور الصحراء؟ ما

هو ذاك؟ لم أسمع بذلك قط». وفي البنتاغون علم زيني أن خطة عبور الصحراء قد رفضت؛ لأن افتراضاتها كانت «سلبية جدًا»، كان يظن عيبها أنها أعدت حين كان كلينتون في السلطة، على الرغم من أن الجيش يفترض ألا يكون متحيزاً. قام فرانكس بمحاولة واحدة للاستعانة بنصيحة زيني قبل أن تبدأ حرب العراق. لكن أوقفه شخص أعلى رتبة.

كان المصطلح العسكري لعمليات مرحلة ما بعد الحرب في العراق هو المرحلة 4. استغرق التخطيط للمرحلة 1 (جمع القوات في المنطقة)، والمرحلة 2 (المرحلة الأولية، في الغالب عمليات سرية)، والمرحلة 3 (الهجوم الرئيس الجوي والبري) الجزء الأكبر من السنة. كانت حرب العراق اختيارية، وقليلة هي الحروب التي أعطت قادتها وقتاً أطول للاستعداد. لكن، بقيت أمور مرحلة ما بعد الحرب التي تظهر في أسفل التقارير عن تقدم سير العمل من القيادة المركزية للبنتاغون، «فقرات مفتوحة»، تنتظر الإجابة. وبحلول آذار 2003، كان التخطيط للمرحلة 4 بالكاد جارياً. «هناك مشكلة حقيقية بفكرة المرحلة 4، من حيث المبدأ»، أخبرني كولونيل ملازم متقاعد من القوات العسكرية الخاصة اسمه (كاليف سيب): «كانت فكرة أن نهاية المرحلة 3 هي نقطة النصر، هي الفشل الفكري في التخطيط للمرحلة الرابعة». يجب النظر إلى المرحلة 4 بوصفها هدف الحرب، وليس واحداً من آثارها. «لكن على مر السنين، أصبحت المرحلة 4 للمخططين الحربيين الأمريكيين هي المرحلة التي تتم فيها إعادة كل شيء إلى الحاويات البحرية والجوية والبرية، وشحنها إلى فورت ستيوارت، جورجيا». كانت هذه حرباً دون سياسة، على عكس القول المأثور لكلوسويتز. كان فرانكس يصر دائماً على أنه قرر ألا يكرر خطأ الجنرال ويليام ويستمورلاند في فييتنام: وأنه سيخبر المدنيين أن يبقوا بعيداً عن الأمور العسكرية، وسيبتعد عن عملهم. وعندما طرح أحد ضباط القيادة المركزية سؤالاً عن التخطيط للمرحلة 4، قال فرانكس: «السيد وولفوفيتز يهتم بذلك». كانت نظرته إلى الحرب نظرة مهندس محترف، والنتيجة أن فرانكس لم تكن لديه رؤية إستراتيجية لما يلزم، لتحقيق النصر في العراق.

كان لدى الرائد تيلور انطباعٌ بأن فرانكس والمخططين التابعين له في القيادة المركزية، لم يفكروا قط في مرحلة ما بعد الحرب بوصفها جزءاً من مسؤولياتهم. «لم يكن الضغط الذي حصلنا عليه من القيادة المركزية حول المرحلة 4 كافياً بصراحة، كان الموقف كما يأتي:

لا تقلقـوا بشـأن ذلك إنه من شأن مكتب إعادة الإعمار والمساعـدات الإنسانية، وهو سيهتم بذلك. لكن ما هو مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية؟».

في 20 كانـون الثاني 2003، وقع الرئيس بوش التوجيـه الرئاسي الخاص بالأمن القومي رقـم 24، وقد وقعه دون سماع الاعتراضات النشيطة من وزارة خارجيته، ومع ذلك ثبت أنه مـن القـرارات المصيرية لحرب العراق. فالتوجيـه الرئاسي رقم 24 –الـذي أُعد في مكتب الخطـط الخاصة– جعل مرحلة ما بعد الحرب في العراق تحـت سلطة وزارة الدفاع، وأنشأ وحدة ضمن البنتاغون، لإدارة العراق بعد سقوط النظام مباشرة، كانت هذه الوحدة تسمى مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية.

في تاريـخ البيروقراطيـة الأمريكيـة كان مكتـب إعادة الإعمـار والمساعـدات الإنسانية نوعـاً جديـداً من المنظمـات، وهي تأخـذ موظفيها مـن وكالات حكومية مختلفـة، بما فيها وزارات الخارجيـة، والماليـة، والدفاع، والتجـارة، ومن المواطنين المستقلـين. كما أنها كانت «استطلاعيـة»، فالفريق يسافر إلى المنطقة، وأخيراً إلى العراق بعد الحرب، ويتصرف مدة غـير محددة من الوقت بصفـة إدارة للعراق، لكن تحت السلطـة العملياتية للقوات البرية، ويرسل التقارير بشكل أساسي لرامسفيلد.

اختار رامسفيلد وفيث لقيادة مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية جنرالاً ملازماً متقاعـداً اسمـه جاي غارنر. حسب جـدول أعمال البنتاغـون، كان غارنر خيـاراً منطقياً: ففـي نهاية حـرب الخليج عام 1991، أدار غارنر عملية توفـير الحماية Provide Comfort. وهـي أول عمليـة تدخل إنسانية بعد مدة الحرب الباردة، وقـد أنقذت حياة آلاف الأكراد في الجبال المغطاة بالثلوج على طول الحدود التركية. ومنذ تقاعده، كان أيضاً متعاقداً ناجحاً لـ Crystal City مع وزارة الدفاع، وعضواً في لجنة رامسفيلد حول الدفاع الصاروخي في أواخر تسعينيـات القرن العشرين، وكان من المفضلين لدى المعهد اليهـودي لشؤون الأمن القومي، المجموعة التي رعت كتابة ورقة إستراتيجية «انفراج كامل» «Clean Break». لذا فمن وجهة نظـر وزارة الدفـاع، كان لدى غارنر الخبرة اللازمة، وكان مرتبطـاً بالأشخاص المناسبين. قال رامسفيلد لفرانكس: «سيكون رجلي في العراق».

كان غارنر من فلوريدة، وكان رجلاً قصيراً ضعيف البنية، سهل القياد، لا يرتدي «الجاكيت» فوق القميص، ومن الناس الذين يعرفون أسماء الجميع، ويصر على مناداته جاي. كان قائداً بالفطرة، مفضلاً ما سماه أحد موظفيه «إسناد المهمات لمن هم في مرمى البصر»: فيمكن أن تلمع برأسه فكرة فيعطيها أول شخص يقابله. وقد أحاط نفسه بمجموعة مغلقة من كبار العسكريين المتقاعدين، بعضهم كان أيضاً من رفاقه في الصيد. كانوا ينادون بعضهم «بوبا»؛ وكان الآخرون يسمونهم «رعاة البقر الفضائيين»، بعد فيلم كلين إيستوود عن مجموعة من رواد الفضاء، يتم إحضارهم من التقاعد لتنفيذ مهمة أخيرة.

إذا فكر المرء بعراق ما بعد الحرب بوصفها عملية إنسانية محدودة، وليس تعهداً عسكرياً غير محدود، أكثر اتساعاً وتعقيداً من أي شيء عرفته الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وجد أن لدى غارنر الفريق المناسب. لم يكن غارنر مفكراً معقداً؛ ولم يكن يعرف عن المنطقة إلا القليل، بالإضافة إلى تجربته مع الأكراد. وبينما كان المسؤولون العسكريون والمدنيون يتعلمون من العواقب الفوضوية للتدخلات التي جرت في أواخر تسعينيات القرن العشرين، كان هو يجني المال في القطاع الخاص. وكان من المنطقي فيما يتعلق بوكالة تم منحها حديثاً السلطة بعد الحرب، على دولة لا تنوي القيام فيها بإعادة إعمار سياسي واقتصادي، أن تعين رجلاً مثل غارنر للإشراف على ذلك.

كان لديه سبعة أسابيع للاستعداد. قال مسؤول في وزارة الدفاع: «هذه هي المدة التي يستغرقها وصل جهاز حاسوب في البنتاغون».

في أوائل شباط، انتقل مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية إلى مكتب في الطابق الرابع من البنتاغون، في الحلقة ب. وهكذا أصبحت تحت مكتب الخطط الخاصة بطابق واحد، ومع ذلك لم يكن هناك أي اتصالات بين هاتين الوكالتين اللتين تخططان لما بعد الحرب ضمن البنتاغون، «كان مكتب الخطط الخاصة يبتعد عن التدخل في عملنا قدر الإمكان»، قال الكولونيل بول هيوز من الجيش، ومسؤول التخطيط لدى غارنر: «كان من الصعب أن نجعلهم يفتحون الباب هناك في الطابق العلوي». وفي أحد الأيام، أحضر أيب شولسكي، ومايكل روبن شريحة باور بونت تخطط بعبارات عامة جدًا هياكل الحكم المستقبلية في العراق. قال هيوز: «هذا كل همهم في مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية». وحين

اقترح هيوز على غارنر إعداد خطة سياسية – عسكرية (وثيقة شاملة من النوع المفصل في توجيه كلينتون البائد رقم PDD56، يعطي مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية الصلاحية لوضع افتراضاتها، ومهمتها، وأهدافها، وأولوياتها، وحالتها النهائية، ثم تقدمها كاملةً للوزارات الأخرى للموافقة عليها) جمد فيث هذه الفكرة. كان هذا أبعد كثيراً من درجة عمل مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية. لن يكون هناك خطة سياسية – عسكرية، ولا وثائق مفصلة على الإطلاق. بقي كل شيء مهم غير مكتوب.

قسم غارنر عمليته إلى ثلاثة «أركان»: المساعدة الإنسانية، وإعادة الإعمار، والإدارة المدنية. وجعلته تجربته في شمال العراق يركز على أكثر الأعمال ضرورة، وهو إمكانية حدوث كارثة إنسانية، وسكان مهجرين، ومجاعة، وانتشار المرض، وأعداد كبيرة من أسرى الحرب، وفوق كل ذلك، هجوم بالأسلحة الكيماوية. كانت الأمم المتحدة تحذر من إمكانية موت نصف مليون شخص. وإذا كان أي من هذه الكوابيس سيحدث، فإن الغرباء ربما يكونون على علم الآن بكل استعدادات مكتب إعادة الإعمار لها.

في 21 و22 شباط، اجتمع المسؤولون الذين يقارب عددهم المئة في مكتب إعادة الإعمار في جامعة الدفاع القومي في واشنطن، لمراجعة خططهم؛ باللهجة العسكرية لمكتب إعادة الإعمار، سمى غارنر الاجتماع «مثقب الصخر»، وهو تدقيق بكل ما تم فعله أو معرفته حتى تاريخه، وقد صدم مثقب الصخر بعض المشاركين، ورأوا أنه مشؤوم.

«شعرت بأن الفريق الإنساني كان في محله تماماً، لكن بقية الأمور كانت تطير هنا على غير هدى»، قال أحدهم لاحقاً: «كان كثير منه بعد أن سمعنا من جاي غارنر: (ليس لدينا أي موارد للقيام بذلك، ولدينا خطة والخطة ستكلف ثلاثة مليارات دولار، ولدينا سبعة وثلاثون ألفاً). أو: (نحن نعمل الآن على جمع الإدارة المدنية، هذا هو عملنا، كل ما فكرنا فيه فعلاً هو النفط)». تم تناول خطر النهب، لكن ضباط التخطيط الذين أُرسلوا من القيادة المركزية، كان لديهم تعليمات بعدم الإجابة عن تلك القضايا التي تتعلق «بما بعد الصراع»، وذلك يعود جزئياً إلى أن قوة الغزو كانت تفتقر إلى القوات الكافية لمواجهتها. كما أن خطط إدارة الوزارات العراقية كانت أولية (لم يكن لدى مكتب إعادة الإعمار أي معلومات تقريباً) غُير رئيس فريق الإدارة المدنية مرتين: فديفيد كاي، الذي قاد فيما بعد

فريق التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في العراق، عُين بدلاً من القائد الأول مدة يومين، ثم استقال دون أن يخبر غارنر عن السبب، عُين تحت إصرار من دوغلاس فيث، من قبل شريك فيث القانوني السابق، مايكل موبز، الذي سبق أن كتب السياسة القانونية لوزارة الدفاع، التي استثنت سجناء غوانتانامو من معاهدات جنيف، وأعلنت مواطنين أمريكيين محددين مقاتلين أعداء ليس لهم حقوق دستورية. وقد اتخذ موبز، المعين السياسي، هذا القرار لمنح شركة هاليبرتون، شركة تشيني القديمة، وهي شركة سرية، رأسمالها سبعة مليارات دولار، عقداً دون استدراج عروض لإصلاح حقول النفط العراقية، بعد الموافقة على ذلك من قبل كبير الموظفين لدى تشيني، سكوتر ليبي. كان من المفترض أن يكون النفط، حتى استقالة كاي، مسؤولية موبز الوحيدة في مكتب إعادة الإعمار. كان رجلاً كتوماً -ظنه الجميع لطيفاً بما فيه الكفاية- لكنه كان رجل فيث ولم يكن له خبرة ذات صلة بالمهمة التي تنتظره في بغداد على الإطلاق، استنتج أحد الضباط من موظفي غارنر أن موبز لا يستطيع قيادة فصيل؛ فقد التحق بمكتب إعادة الإعمار قبل مثقب الصخر بقليل، ثم سافر مباشرة إلى كردستان العراق للاجتماع بجلبي وبقية المعارضة، وترك واجباته حتى قبل أن يتولاها. في النهاية، تبين أن الإدارة المدنية هي الركن الأكثر أهمية.

في أثناء اجتماع مثقب الصخر، لاحظ أستاذ في مدرسة سلاح البحرية للحرب المتطورة، اسمه غوردون و. رود، كان قد وصف لفريق غارنر على أنه باحث تاريخي، رجلاً يجلس تحته بأربعة صفوف في المدرج في جامعة الدفاع القومي. كان الرجل يقحم تعليقاته في أثناء عروض الآخرين. قال رود: «لقد أزعجني في البداية، ثم أدركت أنه على اطلاع أكثر منا. كان قد عمل على الموضوعات المطروحة، بينما كان الرجل الواقف على المنصة غِراً». بدا الرجل «محبطاً؛ لأن لديه خبرة أكثر من أي شخص آخر، لكنه ليس مسؤولاً».

كان ذلك الرجل هو توم ووريك، المنسق الشائك لمشروع وزارة الخارجية عن مستقبل العراق، وكانت إحباطاته قد بدأت للتو، وكان غارنر معجباً به في اجتماع مثقب الصخر، لدرجة أنه طلب منه فوراً الالتحاق بمكتب إعادة الإعمار، والذهاب إلى العراق. وبعد نحو أسبوع، بعد أن سحب ووريك ملفاته من وزارة الخارجية إلى مكتب في البنتاغون، سحب رامسفيلد غارنر جانباً في نهاية اجتماع في مكتب الوزير. أخذ رامسفيلد ورقة كانت

علـى مكتبـه، بينمـا كان يخلط الأوراق التي علـى المكتب، ونظر إليها، وقـال: «جاي، هل في منظمتـك شخصان اسمهما ووريـك وأو. سوليفان؟» كانت ميغـان أو. سوليفان متخصصة في الحصارات في مكتب التخطيط السياسي في وزارة الخارجية، وكانت في الثالثة والثلاثين مـن عمرها. «علـي أن أطلب منك أن تخرجهما من فريقك». وعندما بدأ غارنر بالاعتراض لأنهمـا مهمَـان جدًا، بحيث لا يريد أن يخسرهما، قاطعه رامسفيلد قائلاً: «هذه الأوامر من مستـوى عـالٍ، بحيث لا أستطيع أن أرفضها». وعلم غارنر فيما بعد أن الأمر جاء من تشيني الـذي كان يحتقـر ووريك ويكـره بعض الأشياء التـي كتبتها أو. سوليفـان، التي كانت تحت حماية ريتشارد هاس صاحب الفكر المعتدل، مما يجعلها موضع شك.

أكـد غارنر لووريك وأو. سوليفان أنـه سيعيدهما إلى مكتب إعادة الإعمار. حاول القيام بذلـك عن طريق هادلي، نائب رايس، لكن الأخير رفض قائلاً: «هذا صعب جدًا». أما كولن باول فقد غضب نيابة عن موظفي وزارة الخارجية، واحتج للبيت الأبيض والبنتاغون، وأسر لغارنر، «أخبرت رامسفيلد أنني أستطيع أن آخذ سجناء أيضاً. كان علي آخذ جميع موظفي وزارة الخارجيـة مـن فريقـك، لكن هذا لم يكن ليحقـق أي هدف، نحن نريـد لك أن تكون ناجحاً». جسد هذا المأزق ورطة باول في الحرب كلها، حيث كان غالباً ما يخسر لاعبي فريقه في النهاية. استمر غارنر في الاحتجاج لرامسفيلد، وقبل الانتشار في الكويت ببضعة أيام قال له رامسفيلد: «أعد الأنثى، ولن يعلم أحد بذلك». وهكذا سمح لميغان أو سوليفان بالعودة إلى مكتب إعادة الإعمار.

أمـا توم ووريك، الذي كان قد قام بالتفكير للعـراق في مرحلة ما بعد الحرب، شأنه شأن أي مسـؤول أمريكي، فقـد أصبح من ضحايا الحرب بين الوكالات، ولم يذهب إلى بغداد مدة سنـة. وظـل البنتاغـون يؤجل تعيين بقيـة الموظفين رفيعـي المستـوى في وزارة الخارجية من ذوي الأيديولوجيـات الغريبة والخبرة الطويلـة في الشرق الأوسط، ولم يكن ذلك علناً، وإنما ببساطـة لعدم القدرة على الموافقـة عليهم. قالت السفيرة باربرا بوديـن، وهي مستعربة في الخدمـة الخارجية، التحقت بمكتب إعادة الإعمار في أوائل آذار: «لم نقدر الأشخاص الذين كنـا نلعب معهـم. استغرقنا وقتاً لندرك أنهم يـؤدون لعبة مختلفة لها قواعـد مختلفة، وكنا مهيئين للخسارة». وتمت أرشفة التقارير حول مشروع مستقبل العراق. وبعد أشهر التقيت في

بغداد محامياً عراقياً أمريكياً اسمه سرمد الصراف، كان قد عمل في مجموعة عمل العدالة الانتقالية، وكان يحمل نسخة من تقريره البالغ 250 صفحة، محاولاً أن يحوز اهتمام مسؤولي الاحتلال. لكن بدا أن أحداً لم يرَ ذلك التقرير.

حتى إن البنتاغون قد استبدل بفريق وزارة الخارجية الأمريكية من المغتربين العراقيين فريقاً خاصاً به، حيث أخذ بعضهم من المشروع واستبعد الآخرين، ووظف أفراداً جدداً من مجموعة دُعيت لسماع خطاب وولفوفيتز في ديربورن، ميشيغان، في أواخر شباط. كان توم ووريك يطور علاقة مع العراقيين في ميشيغان مدة لا تقل عن سنة، ولكن كان من الواضح أنه لم يدعَ للاجتماع بوولفوفيتز. حذر ووريك «رجاله» العراقيين من العمل مع البنتاغون، وكان بذلك يساعد في تأكيد مصيره. تم تجميع العراقيين بإشراف وولفوفيتز باسم مجلس تنمية وإعادة إعمار العراق، ونُظِموا في غرف تنتشر في طابقين من مبنى مكتب مجاور للبنتاغون، تحت حراسة مشددة. كانت الإشارات على الغرف قد كتب عليها: «وزارة الدفاع»، «وزارة الداخلية». وكان لديهم أقل من شهر لتنظيم البنية التحتية المدنية لحكومة انتقالية في بغداد. ضمت المجموعة عدداً من العراقيين المؤهلين، وكان الكثيرون منهم سيتابعون العمل مع الاحتلال. لكن مهمتهم كانت إعادة اختراع العجلة.

كان ريتشارد أرميتاج قد طلب من باربرا بودين أصلاً أن تلتحق بمكتب إعادة الإعمار بصفتها رئيسة للإدراة المدنية. وحين وصلت إلى البنتاغون، كان فيث قد وضع موبز في ذلك المنصب، وقبل نشر القوات بأسبوعين فقط، أعطيت بودين المنصب المفتوح لإدارة بغداد ووسط العراق. وحين جلست مع وولفوفيتز وأمامهما خريطة العراق لتحديد المحافظات التي تضمها المنطقة الوسطى، بدأ وولفوفيتز يفكر في تغيير الحدود الإقليمية برمتها. كأن العراق كان صفحة بيضاء، وعلى محرريه أن يقوموا بإعادة تكوينه. كان وولوفيتز ينزلق دون أن يشعر في الدور الذي طالما أصر على أن الإدارة لا تريده: دور السلطة الاستعمارية المستبدة. كان بإمكانه تخيل معاناة العراقيين، وإمكانيات العراقيين، لكنه لم يستطع قط أن يتخيل استياء العراقيين. وقد تساءلت بودين هل يمكن لرجل ذكي مثل بول وولفوفيتز ألا يكون قد سمع باتفاقية سايكس بيكو السرية التي تمت عام 1916 التي قسمت الإمبراطورية العثمانية إلى مناطق سيطرة بريطانية وفرنسية؟. وكانت تقترح أن إعادة رسم خطوط

العـراق من قبل سلطة غربيـة ليست فكرة جيدة. وقد قالت لوولفوفيتـز: «انظر إلى شبكة الطرق. هذا هو النموذج الذي نشأ عبر القرون. هكذا يرى العراقيون أنفسهم».

وإذا كان وولفوفيتـز يتقدم نحو الفخامة عشية الحـرب، فقد بقي رئيسه غير مهتم إلى حـد الإهمـال. فحين قدمت بوديـن لرامسفيلد عرضاً موجزاً عـن إدارة العراق بعد سقوط النظـام، أكدت الحاجة الفورية إلى موظفين حكوميـين للتصدي للفوضى، أو المقاومة، لكن رامسفيلـد لم يبدِ أي استعجال، فالعراقيون يمكـن أن ينتظروا أسابيع أو شهوراً. كان الأهم هـو ألا يقـوم دافعو الضرائب بتسديد الفاتورة. أما عن إمكانية حدوث الفوضى، فقد اقترح وزير الدفاع أن هذا يمكن أن يستخدم لإقناع دول أوروبة القديمة للمشاركة في القوات.

وبحلـول منتصـف شبـاط، أصبح مـن الواضح لمن ينتبـه أن الإدارة لم تكـن مهيأة قط للتعامـل مـع العـراق بعد الحرب. كان بعض هؤلاء الناس المنتبهـين في الكونغرس. في 11 شبـاط، ظهـر فيـث ونظـيره في وزارة الخارجية، وكيـل الـوزارة للشـؤون السياسية مارك غروسمان، في جلسة استماع في لجنة العلاقات الخارجية، في مجلس الشيوخ، وحاولا تمثيل جبهـة موحدة. بـدت شهادتهما وكأنهما تلميذان يحـاولان أن يجيبا عـن أسئلة المعلم حول وظيفـة قاما بإعدادها معاً، ويصارعان خمس عشرة دقيقة أمام الصف. قال موظف رفيع المستـوى في وزارة الخارجيـة فيما بعد: «لم يكن هناك إجماع، كلما بدأ مارك بالشهادة كان يريـد إظهار قدرة الخارجيـة الأمريكية على التباهي، نحن بحاجـة إلى شخص يتمتع بقوة باقيـة، وقـدرة على ألا يتصارع بعنف مع الشخص الـذي إلى يمينه». كان غروسمان يحاول جاهداً أن يجعل الأستاذ سعيداً؛ أما الشخص الذي كان إلى يمينه، فقد كان يحاول أن يفوق الأستـاذ ذكاءً. وتحت الضغـط الغاضب للسيناتور جوزيف بايدين مـن ديلاوير والسيناتور بـول ساربانز من ماريلاند، وضع غروسمـان مراقباً للدور الأمريكي في العراق مدة سنتين، وخطـط لعمليـة ذات ثلاث مراحل للحكـم الذاتي في العراق، وترك معظـم التفاصيل حتى عروضـ مستقبليـة لم تحدث قط. فيما يخص فيث، الذي كان يدير مكتب الخطط الخاصة المسـؤول عـن التخطيط لما بعد الحرب منـذ أيلول الماضي، فقد كانـت شكوك الحرب تضع الموضـوع كاملاً في عالم الغيب. وقد أخذت إجاباتـه شكل حِكَم مدرب تأمل بوذي: سيصبح

العـراق ملكاً للعراقيين. أمريكة ملتزمة بالبقـاء وملتزمة بالمغادرة. سنبقى طالما كان هناك حاجة لبقائنا، ولن نبقى يوماً واحداً بعد ذلك.

السيناتـور شـايف: هل لديكم خطة إستراتيجية للخـروج، أو نوع من التخطيط إذا تحول هذا إلى كارثة...؟

فيـث: الإجابة القصيرة هي نعم. نحن نخطط لأسـوأ الاحتمالات، وأريد أن أؤكد للجنة أن كل واحد من الـ...

السيناتور شايف: متى ستطلعوننا على هذه الخطط؟

السيناتـور دود: أخبرني لماذا تعتقد أن بناء الأمة هنا والإمساك بالأمور معاً شيء يمكن تحقيقه في أثناء سنتين، حسب إجابتك للسيناتور فينغولد.

فيث: أولاً، سيناتور، كانت السنتان إجابة زميلي المحترم، وكيل الوزارة غروسمان.

السيناتور دود: حسناً.

فيث: ولا أظن أنني سأتجرأ على التنبؤ.

ثـم أصر فيث علـى أنه لم تكن هناك أي نيـة لنقل السلطة إلى أحمـد الجلبي. أخبرني فيـث: «إن فكرة أن لدينا خطة صارمة للتحـول السياسي فكرة خاطئة، لقد طورنا مفاهيم، وتوجيهـات للسياسة، مثلاً: تنظم أكبر قدر ممكن من السلطة بأيدي العراقيين. هذا توجيه للسياسـة. أمـا فيما يخص أسماء وجداول زمنية وأدواراً محددة، فلا يفترض أن يملي أحد ذلـك؛ لأنك لا يمكن أن تعرف ذلك؛ هذا كأنك تحاول أن تخبر قائداً محلياً قبل المعركة عن العـدد المحـدد للأشخاص الذين عليـه أن يستعملهم عند بدء القتال. ليـس بإمكان أحد أن يعمل وفق خطة صارمة مسبقة».

قبـل يومين أو ثلاثـة من الذهاب إلى الكويـت، قام جاي غارنر بعقـد المؤتمر الصحفي الأول والوحيـد لـه. وحين سأله أحـد الصحفيين إن كان سيسلم السلطـة إلى الجلبي، وإلى المؤتمر الوطني العراقي، أجاب غارنر: «لا أنوي تفويض المؤتمر الوطني العراقي. وليس لدي مرشح. سيبرز الرجل الأفضل».

وفي تلك الليلة، تلقى غارنر عدة اتصالات هاتفية غاضبة من فيث. وقد وجد غارنر أنه شخص يصعب العمل معه، ومتعجرف ومشتت الذهن، مما جعله يرسل نائبه، الجنرال الملازم المتقاعد رون آدمز، للتعامل مع وكيل الوزراة. ناح فيث على الهاتف قائلاً: «لقد آذيت المؤتمر الوطني العراقي، وسببت الحرج لأحمد».

فارتفع صوت غارنر قائلاً: «حسناً إذاً دوغ، أنت تريد أن تعقد مؤتمراً صحفياً صغيراً في الصباح وتقول: لقد طردنا غارنر؛ لأنه أحرج أحمد الجلبي».

«لا نستطيع أن نفعل ذلك».

«إذاً اغرب عن وجهي».

أما وولفوفيتز، فقد حث غارنر، بأسلوبه المهدئ، على أن يكون ألطف مع المؤتمر الوطني العراقي. منع غارنر من التحدث إلى الصحافة بعد ذلك، وحين اشتكى من الحظر لرامسفيلد، علم أن الأمر قد صدر من البيت الأبيض. حيث جاء أن رئيس مكتب إعادة الإعمار «لا يسمع النغمة السياسية» ويجب أن يبقى تحت السيطرة.

وبحلول أوائل آذار، تخلت كوندوليزا رايس عن مكتب الخطط الخاصة. ظهر أن موظفي البنتاغون أكثر مهارة في الجدال، وكسب المعارك السياسية من فعل أي شيء، كما أن فكرتهم بتدريب ستة آلاف عراقي من أتباع أحمد الجلبي في قاعدة عسكرية في هنغارية للقتال إلى جانب قوات الغزو الأمريكية باءت بالفشل حين أخفق العراقيون في تحقيقها؛ ففي نهاية التدريب، كانت القوات العراقية الحرة تتألف من سبعين رجلاً. وبعد أن استولوا على الميدان البيروقراطي لمرحلة ما بعد الحرب في العراق، نجح المسؤولون تحت إمرة وولفوفيتز وفيث في الخروج بموجز سياسة واحد حول النفط. كان عرض موبز طويلاً جدًا وبلا تركيز -كان يتألف من ثمانٍ وأربعين شريحة بدلاً من خمس أو ست كالمعتاد- لدرجة أن رايس قررت أن تنحي مكتب الخطط الخاصة جانباً، وتسلم قضايا السياسة بعد الحرب إلى مسؤول من وكالتها اسمه فرانك ميلر.

في 10 و12 آذار قبل أسبوع من بداية الحرب قدم ميلر عرضاً موجزاً لنواب الأمن القومي والمديرين، وأخيراً للرئيس حول عشرات الأمور الخاصة بمرحلة ما بعد الحرب. ذكر فيه

أن اجتثاث البعث سيخرج 1% من أفراد حزب البعث الأرفع مكانة من الخدمة الحكومية؛ سيتم خفيض عدد أفراد الجيش العراقي، ولكن لن يتم حله، وسيتم استخدامه للقيام بأعمال عامة؛ سيتم تعيين حكومة انتقالية حسب جدول زمني، مع بقاء بعض الوزارات تحت الإشراف الأمريكي مدة أطول من الوزارات الأخرى. وافق الجميع حتى الرئيس على قرارات اللحظات الأخيرة تلك. ومع ذلك، لم تكن لها أي أهمية في العراق. فقد بدا أنها وجدت ليقال: إن سأل أحد، «نعم، لقد تم عرضها على الرئيس ووقع عليها».

أراد غارنر الذي كان على وشك على التوجه إلى الشرق الأوسط مع فريق مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، أقل قدر ممكن من التعليمات؛ كانت لديه أفكاره الخاصة به، وكان يرى أن ميلر وإيليوت أبرامز، وموظفي البيت الأبيض «معرقلون في أفضل الأحوال. لقد كانوا شوكة في الخاصرة. مهما كنا نفعل، كانوا يحاولون تحقيق العكس. من وجهة نظري، كانوا مصممين لجعلنا نفشل. إنه تصريح قوي، لكنهم كانوا يقومون بكل ما بوسعهم ليسببوا لنا المتاعب». في تلك الأثناء، في البنتاغون، كان فيث يخطط لإرسال الرجلين اللذين قام بتعيينهما، رود وروبن، لمتابعة الرقابة على مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية في الكويت، وإعطاء الجلبي البداية الأفضل في بغداد. وقام المتحدث باسم رامسفيلد، لاري دي ريتا بمرافقة غارنر حيثما ذهب، وحتى عندما كانت الإدارة تستعد لاحتلال دولة أجنبية، ظلت في صراع مع نفسها بشكل ميؤوس منه. لم يكن أحد من المسؤولين يسأل السؤال الأساس الأول: ماذا نفعل إذا ساءت الأمور؟

في 16 آذار، قبل سقوط القذائف الأولى على بغداد، سافر 169 رجلاً من أفراد مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية من واشنطن إلى الكويت. وكان من بينهم أندرو إردمان.

وعلى الرغم من أن إردمان كان قد تخلى عن العمل الأكاديمي، كانت أسباب ذهابه إلى العراق مهنية بشكل أو بآخر. «كان تحليلي أننا في نقطة تحول تاريخي حاسمة،كنت أشعر أننا في حدث حاسم، سيكون له تأثير، جيد أو سيئ فينا عقداً من الزمن. فإذا كان التأثير سيئاً، فإن العواقب ستكون أسوأ من فييتنام. وثانياً -لم يكن الأمر مجرد موضوع صواريخ- ستكون مرحلة ما بعد الحرب هي الأكثر أهمية. لذا فإن المقياس المنطقي هو أن مرحلة ما بعد الحرب نقطة تحول حاسمة، وعليك أن تعرض المشاركة».

مـن وجهة نظـر إردمان، كان صدام يصبـح تهديداً متزايداً مع الاحتـواء الذي أضعفه طـرد المفتشين وإضعاف العقوبات. كانت تلك الحجة «الواقعية» للحرب، لكن إردمان، شأنه شـأن معظـم الناس، لم يفكر كلياً في أنـواع نظرية العلاقات الدولية. كمـا كان يؤمن بتميز أمريكة، وأن دور أمريكة في شؤون العالم أكبر من مجرد سياسة قوة، وأن الحرية منذ تأسيس الجمهوريـة الأمريكية كانت مرتبطة بشكل معقد بالحرية الإنسانية (كان هذا موضوع أحد فصـول أطروحتـه)، وكان اختلافه عـن المحافظين الجدد فيما يفكر فيـه أقل من اختلافه عنهم في طريقة تفكيره. كان يخفف من مثاليته انجذاب عالم التاريخ الطبيعي إلى الحقائق، وشعوره بأن التصرفات الأمريكية في العالم قابلة للخطأ، وترتكب الحماقات أحياناً.

كان عليـه أن يقنـع كلاً من رئيسـه، ريتشارد هاس، وزوجه، التـي لم تكن ترى أن هناك حاجـة للحـرب، أن يدعـاه يذهب إلى العراق. «أعلـم أنني إن لم أفعل، فسأنـدم دائماً على ذلك. كما أن زوجي كانت تعلم أيضاً أن ندمي سيأكلني».

طلـب إردمان أن يلتحق بفريق الإدارة المدنيـة، تحت قيادة شريك فيث القانوني السابق موبـز. وحين وصل إلى الفيلات التي تقع على شاطـئ فندق هيلتون في مدينة الكويت، حيث اتخذ مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية مقراً له، كانت العملية لا تزال في حالة من الفوضى. وعند الوصول، اختفى غارنر والمقربون منه دون أن ينطقوا بكلمة في الفيلا الخاصة بهم، ولم يرَ بقية أفراد مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية قادتهم مدة يومين. كان لـدى رفاق الصيد ورعاة البقـر الفضائيين همة هائلة، لكنها لم تخرج من مجموعتهم قط. كان الجميـع يحبون جـاي، لكن أحداً لم يكن يفهم المهمة. أما موبـز، الذي بدا كأنه يرتدي ثيـاب التصييـف الساحلية، فقد تم تجميده بعد مشاورات الجـنرالات المتقاعدين. ولم يكن لـدى غارنر أي احتـكاك بالفريق تقريباً. كان غرودون رود، التاريخـي العسكري، قلقاً جدًا ليتحدث معه عن ذلك. قال رود: «لم نكن نولي انتباهاً كافياً بالإدارة المدنية. فأجاب غارنر: «غـوردون، يمكـن لذلك أن ينتظر. علينا أن نركز على المساعـدة البشرية». في ذلك الوقت، ظن رود أن ذلك الخيار منطقي: أنقذ الأرواح أولاً، ثم قم بإصلاح العراق.

لكـن الأمور لم تكن أفضل كثيراً في ركن المساعدة الإنسانية، بقيادة خبير حفظ السلام جـورج وورد. فقد وجـدت ميغان أو سوليفـان نفسها مكلفة بقضاء اليـوم كأنها فرد إضافي

في سيارة لتحقيق متطلبات أمنية. وكانت تُبعد عن الاجتماعات التي تتم فيها مناقشة أمور سياسية أكبر، من النوع الذي كانت تحيا به في أمريكة؛ حتى إنها لم تكن تستطيع هي وزملاؤها تلقي مكالمات هاتفية. كانت أوسوليفان امرأة جذابة بيضاء البَشْرَة، رشيقة، صهباء من ماساشوستس، يمكن أن تخدع بسخريتها الخفيفة من نفسها، حيث إنها كانت أيضاً طموحة وهادئة تحت الضغط، وكانت لديها موهبة للحصول على مناصب جيدة بشكل محترف (وهذا ما تكرر عند وصولها إلى بغداد).

وكانت قد ألفت كتاباً حول «العقوبات الذكية» بوصفها زميلة في معهد بروكينغز قبل الالتحاق بوزارة الخارجية (وهذا ما جعل وصولها إلى العراق سهلاً في نظر المحافظين الجدد). كانت العراق إحدى أكبر المشكلات التي واجهتها السياسة الخارجية الأمريكية التي عرفتها أوسوليفان: وكان العراق والشرق الأوسط تعني لها كما كانت أوروبة تعني للجيل السابق. وكانت أسباب دعم أوسوليفان للحرب هي أسباب إردمان نفسها، زميلها في التخطيط السياسي. في أيلول الماضي، كانت أوسوليفان قد أخبرت ريتشارد هاس في أثناء جولة في مركز التسوق أنها تريد -إذا حصلت الحرب- أن تذهب إلى العراق فيما بعد. لكن في بدايات ربيع عام 2003، بعد أن دافعت عن الإدارة الأمريكية في مؤتمرات بأوروبة وتم التغلب عليها مراراً، بعد أشهر من الضغط الذي لا يحتمل، وصلت أيضاً إلى نقطة فكرت فيها ببساطة: فلنقم بذلك فقط، حباً بالله! والآن بدأت الحرب، وكانت في الكويت على بعد سبعين ميلاً من العراق، لكنها كانت يائسة من الوصول إليها.

وفي أحد الأيام في بداية الحرب، رأت أوسوليفان صاروخ Silkworm يطير فوقها وأدركت أنها لو كانت قد عادت إلى التخطيط السياسي في الخارجية الأمريكية لوضعت يدها على جميع أنواع المعلومات الاستخباراتية حول ما كان يحدث في الشمال؛ لكنها، حيث كانت، لم تكن تعلم أكثر مما ترى على قناة CNN. بدأت تسير في منتصف الليل، ويراودها شعور غير مألوف لم تستطع تحديده في البداية، لكنه كان يستهلكها جسدياً. كان ذلك الشعور هو الندم. ظلت مستيقظة تعيد التفكير في القرار الذي أحضرها إلى الكويت.

حتى باربرا بودين التي كانت من أعضاء الفريق المهمين، تم قطعها عن الحلقة. كانت بودين قد عملت في سفارة بغداد في ثمانينيات القرن العشرين، وتم احتجازها رهينة في

الكويت عدة أشهر بعد الغزو العراقي عام 1990. لكن مدة خدمتها سفيرة في اليمن في عهد كلينتون، كانت مثيرة للجدل: فبعد تفجير USS Cole في عدن عام 2000، اصطدمت مع رئيس التحقيق في FBI، جون أونيل، حول تصرفات فريقه في اليمن، ومنعته من الدخول أخيراً. استقال أونيل من الخدمة الحكومية باشمئزاز، وعمل مديراً للأمن في مركز التجارة العالمي، حيث مات في الحادي عشر من أيلول. كانت بودين بين الأشخاص المهمين في الكويت، وكانت واحدة من القلة غير العسكرية، والمرأة الوحيدة، وبالتدريج وجدت نفسها تختفي من دائرة القادة مثل Cheshire Cat. ولتبقى على اتصال بالخارجية الأمريكية، كان عليها أن تدور حول غارنر والبنتاغون، وتجري اتصالات مكوكية من واشنطن إلى السفارة في مدينة الكويت.

وفي محادثات سرية، كانت تحث زملاءها في الخارجية الذين منع مكتب فيث تعيينهم على السفر إلى الكويت بتصريح من السفارة، وكانت تقضي ساعات في نصح ومواساة الشبان والشابات الباكين الذين كانوا قد تركوا أعمالاً ممتعة في واشنطن ليسقطوا في الكويت فيما شعروا أنه عطلة سيئة على الشاطئ مدة خمسة أسابيع، وسط التوتر الذي تسببه الإنذارات المتكررة بهجوم بالغاز، والأحياء القريبة، وذل العمل التافه، والتعطل الفكري، والتعتيم على المعلومات، والحيرة لعدم معرفة ما سيفعلونه عند وصولهم إلى بغداد. لم توزع أي وثائق تخطيط على الفريق؛ ولم تكن هناك حتى مخططات للوزارات العراقية.

في النهاية، أنتج مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية وثيقة واحدة من خمس وعشرين صفحة، مكتوبة بشكل أنيق بعنوان «خطة مهمة موحدة للعراق بعد الحرب». ولم يتم إرسالها إلى واشنطن للموافقة عليها؛ لذا فقد كانت وظيفتها الحقيقية الوحيدة تاريخية. بدأت الوثيقة بجملة: «سيحكم التاريخ على الحرب ضد العراق ليس بتألق التنفيذ العسكري، وإنما بفاعلية الأنشطة التي تتم بعد الهجمات». وكتب في أعلى صفحة العنوان «مخطط عمل أولي»، وكانت بتاريخ 16 نيسان 2003 – أي قبل سفر أول أعضاء الفريق إلى بغداد، التي سقطت قبل أسبوع، بثلاثين يوماً. قالت بودين: «لم تكن تلك خطة، لقد كانت مخططاً لم يرَ النور، أما (الخطة) فكانت ستصدر من العراق بنهاية شهر آب».

كان غارنر يتحدث عن المكوث في بغداد تسعين يوماً، ثم العودة إلى الديار. وقد صدم هذا أو سوليفان وإردمان وغيرهما لأنه لم يكن واقعياً إطلاقاً. وفي عشاء في مطعم هيلتون مع

اثنين من الموظفين في مجلس الشيوخ كانا قد جاءا من واشنطن، وضع غارنر جدول العمل: إعادة بناء المرافق، تشغيل الوزارات، تعيين حكومة انتقالية، كتابة الدستور وإقراره، إجراء انتخابات. وبحلول شهر آب، ستكون للعراق حكومة مستقلة فاعلة. ساد صمت مصدوم. فقال شخص يجلس إلى الطاولة: «أي شهر آب؟».

كان غارنر يحمل تعليماته من وزارة الدفاع كما فهمها، لكنها كانت غامضة وغير مترابطة. ظل تركيب الحكومة الانتقالية غير معروف؛ كان غارنر يعلم أنه إذا صرح بأي أسماء، فستقوم جهة أو أخرى من الإدارة المنقسمة بشكل مرير بقتلهم. كان الموضوع الوحيد الذي ظن غارنر أنه قد حصل فيه على موافقة الجميع هو الجيش العراقي: فقد كان قد أوجز للرئيس ورايس ورامسفيلد وولفوفيتز وفيث، ووافقوا جميعاً على خطته بالمحافظة على سلامة الجيش ودفع الرواتب له. كانت هناك مؤتمرات صحفية مصورة يومياً في الكويت مع البنتاغون، وكان المتحدث باسم رامسفيلد، لاري دي ريتا، إلى جانب غارنر دائماً كظله.

في الليلة التي وصل فيها دي ريتا إلى الكويت في أوائل شهر نيسان، عرض له كبار موظفي مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية موجزاً، وحين تحدث نائب قائد جناح إعادة الإعمار، كريس ميليغان من USAID عن الحاجة لإظهار فوائد مبكرة للشعب العراقي، ضرب دي ريتا بقبضته على الطاولة، وقال: «نحن لا ندين لشعب العراق بأي شيء، نحن نعطيهم حريتهم، وهذا كافٍ». وبعد عدة أيام، في الوقت الذي أدرك فيه موظفو مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية أن دي ريتا يتمتع بثقة رامسفيلد الكاملة، وقف المتحدث باسم الوزير في اجتماع ضم نحو خمسين شخصاً في قاعة المؤتمرات بالهيلتون، وقال للحضور (الذي ضم عدداً من الموظفين في الخارجية): إن وزارة الخارجية قد تدخلت في البوسنة وكوسوفو، ولن يسمح البنتاغون بأن يتكرر هذا في العراق. «سنقوم بتعيين حكومة انتقالية، وتسليم السلطة لها، ونخرج من العراق بعد ثلاثة أشهر أو أربعة»، أعلن دي ريتا: «سيخرج نحو خمسة وعشرين ألف جندي في بداية أيلول». فيما يخص بول هيوز، رئيس التخطيط لدى غارنر، «بدا ذلك، وكأنهم سيقومون بوضع خمسة أرطال من النفايات في ورق لف الهدايا، ويسلمونها ويقولون: حظاً سعيداً. قد يبدو ذلك لطيفاً، لكنه سيبقى لفة نفايات».

التحق موظفون آخرون في البنتاغون، بمن فيهم هارولد رود من مكتب الخطط الخاصة، بمكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية في الكويت، لكن أحداً لم يستطع معرفة ما يفعلون؛ كانوا كأنهم يعيشون في عالم آخر. مكث رود في «فيلا» مع أعضاء في المؤتمر الوطني العراقي، وهناك كان هو وسالم الجلبي يرسلان مذكرات إلى وولفوفيتز وتشيني. كان رود يحث على التشكيل السريع لحكومة عراقية انتقالية، بقيادة الجلبي والمؤتمر الوطني العراقي. أما بقية أعضاء مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، فقد بدؤوا يفكرون في موظفي وزارة الدفاع الموجودين بينهم بصفة مفوضين، تم إرسالهم إلى الكويت لمراقبة الفريق. وفي أثناء الحديث على العشاء، كانوا ينظرون فجأة إلى كتف من بجانبهم لرؤية من قد يكون مستمعاً إليهم. وأخيراً قال أحدهم: «أليس هذا هو نوع النظام الذين يفترض فينا أن نتخلص منه؟».

بدأ درو إردمان يشعر بأنه يسير على غير هدى، حتى بدأ يبحث عن مهام يسندها لنفسه، وقام مع عدد من زملائه بإعداد قائمة تضم ستة عشر موقعاً حول بغداد على الجيش أن يقوم بتأمينها عند سقوط المدينة. واستعانوا بدليل Lonely Planet. كان المصرف المركزي في أعلى القائمة. ويليه المتحف الوطني. حيث إن له «أهمية رمزية»، كما شرح إردمان.

كانت بقية المواقع وزارات آخرها وزارة النفط. وفي 26 آذار، ذهبت القائمة إلى معسكر Doha، الذي يقع على بعد ساعة من الحدود العراقية. كان فرانكس قد وضع مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية تحت السلطة التشغيلية لقادة القتال على الأرض هناك، بدلاً من أن يتولى المسؤولية المباشرة عن مرحلة ما بعد الحرب بنفسه، وجعل السلطة العليا للقيادة المركزية. قال فرانكس لغارنر: «لا أريد أن أقوم بإدارة جداول مواعيد الحافلات».

زادت المسافة بين مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، ومعسكر Doha في الكويت في أثناء الحرب من عدم وجود تخطيط مشترك للمرحلة الرابعة بين البنتاغون والقيادة المركزية، في أثناء مدة ما قبل الحرب، حتى حين كانت فرقة المشاة الثالثة والقوة البحرية الاستطلاعية الأولى تقطعان مئات الأميال في الصحراء في طريقهما إلى العاصمة العراقية، وهما تتركان أراضي محررة، لكن غير مؤمنة. كانت الشرطة العسكرية ووحدات

الشـؤون المدنية لا تـزال بعيدة، وضعيفة جدًا على الأرض. في اليوم الثاني للحرب، كان أحد المقاولـين الشبـاب المتعاقدين مع USAID، اسمـه ألبرت سيفالوس يقـف مع مجموعة من ضبـاط الشؤون المدنية على الحدود العراقية الكويتية، حين التفت إليه أحد الضباط وسأل: «ألبرت، ما هي الخطة للشرطة؟».

كان عمل سيفالوس في مجال حقوق الإنسان. قال له: «ظننت أنك تعرف الخطة».

«كلا، نحن ظننا أنك تعرفها».

«ألم تتحدثوا مع مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية؟».

«كلا، لم يتحدث إلينا أحد».

أراد سيفالوس الهروب. ذكر تلك الحادثة فيما بعد على أنها «عادة لوريل وهاردي. ماذا حـدث للخطـط؟ هذا سؤال بمليـون دولار لا أعرف الإجابة عنـه. كان هناك تخطيط، كنت أعلـم أن هنـاك تخطيطاً. لقد رأيته، وكان لي دور فيه. كان من الفشل قبول تلك الخطط أو نقلها إلى حيث تكون مهمة على الأرض».

بعـد عـدة أسابيع، حين سقطـت بغداد وحدث نهـب شديد، ذهب إردمـان وآخرون إلى معسكـر الدوحـة، للبحث فيمـا حصل لقائمـة المواقـع. فالتقوا عقيـداً بريطانيـاً شاباً في الصحراء، قال: «حسناً، تعلمون، فلم أعلم إلا أمس بتلك المجموعة الكبيرة من الأشياء التي قمتـم في مكتب إعـادة الإعمار والمساعدات الإنسانية بعملهـا». ورفع الضابط يده قليلاً عن وجهه: «يجب أن تفهم، كنا نركز هكذا على القتال. والآن نستطيع أن ننظر فيما أرسلتموه». سقطـت القائمة في مكان ما، في الهوة البيروقراطية بين مكتـب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانيـة، والجيش، وقد فـات الأوان الآن، كان إردمان يشاهد المواقـع تنهب وتحرق على شاشـة التلفاز. «هكذا، في عالم صغير، لم تكن العجلات، أو شبكة الاتصالات، أو النغمات، صحيحة»، قال إردمان: «ولا أعرف: هل كان السبب أننا لم نكن نهتم بذلك؟».

في واشنطـن، عرض أحد موظفي الحكومة مخاوفه حـول النهب على البنتاغون. وأخبر نائب فيث، ويليام لوتي، أن الإدارة الأمريكية كانت بحاجة إلى أن تتعلم الكلمة العربية (منـع تجـوال)». لم يبدُ لوتي قلقاً؛ وقال: إن الجنـرالات في الميـدان يعلمـون ما يفعلون.

نظر كثير من الأمريكيين إلى سقوط تمثال صدام في ساحة الفردوس ببغداد في 9 نيسان على أنه نهاية مفاجئة ودراماتيكية لحرب مدوية، لقد حدث تحرير العراق بشكل أسرع، وبعدد أقل من الضحايا، وبكم أقل من الدمار، مما قد يتخيله أي أحد، حتى المتفائلين. لم تحدث أي من الكوارث التي كان مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية قد أعد لها (اللاجئين، الأسلحة الكيماوية، حرق حقول النفط، الإصابات الكبيرة للمدنيين) وهذا يعود جزئياً إلى السرعة المذهلة للغزو، ولسقوط النظام. كان العراقيون في مدن كثيرة يحتفلون في الشوارع ويحضنون الجنود الأمريكيين. حتى إن بعضهم رمى الزهور كما تنبأ كنعان مكية.

كان هناك احتفال في واشنطن أيضاً، وكانت هناك موجة من الانتصار والدهشة متحيزة بقدر ما هي وطنية، ولم تبدُ مثل قبلة سعادة لبحار أو ممرضة في ساحة تايمز بيوم VJ. وفي 31 نيسان، أقام ديك ولين تشيني حفلة عشاء في مقر إقامة نائب الرئيس مع أصدقائهما كين وكارول أديلمان، وبول وولفوفيتز وسكوتر ليبي. كان أديلمان قد تنبأ بأن العراق سيكون «مهمة سهلة»، وشربت المجموعة الصغيرة نخب الرئيس، واستمتعت بطعم النصر على المعارضين (الصحافة وبرنت سكوكروفت وقبل كل هؤلاء كولن باول) كما استمتعت بالنصر على النظام البعثي. وقد صرحت أهم منشورات المحافظين الجدد Weekly Standard بأن ضعف سنوات كلينتون قد ولى، وأن العالم قد أصبح عالماً جديداً. كتب محرر Standard، ويليام كريستول: «لقد أحرزنا في معارك أفغانستان والعراق نصراً حاسماً ومشرفاً، لكنهما ليستا سوى معركتين». وحذر زميله ديفيد بروكس، نقلاً عن أورويل قائلاً: «الآن بعد انتهاء الحرب في العراق، سنرى كم من الناس في العالم يستطيعون مواجهة الحقائق غير السارة». كان بروكس يقصد العرب والأوروبيين ومن يكرهون بوش، فلن يستطيع أي منهم أن يقبل تحرير أمريكة لبلد مسلم. لكن أياً من الكاتبين لم يلاحظ، إن لم نقل لم يواجه، الحقائق غير السارة التي تظهر على الأرض في العراق، حتى بينما كانوا يعلنون النصر في واشنطن. وقد ذكر رامسفيلد من البنتاغون، الفوضى المتصاعدة في العراق برصانة، وقد تورد وجهه من نجاح خطته للحرب. وقال المسؤول عن العراق بعد الحرب: «إنها أمور تحدث، وهي غير مرتبة، والحرية غير مرتبة، والناس الأحرار لهم الحرية في ارتكاب الأخطاء والجرائم والقيام بالأمور السيئة».

كانت كلمات رامسفيلد، التي ما لبثت أن أصبحت سيئة السمعة، تشير إلى فلسفة سياسية كاملة. فقد كان وزير الدفاع ينظر إلى الفوضوية ويرى أنها أولى مراحل الديمقراطية. كانت نظرته ونظرة الآخرين في الإدارة الأمريكية، ونظرة الرئيس قبلهم جميعاً، إلى الحرية على أنها عدم وجود القيود. وأن الحرية موجودة في طبيعة الإنسان التي منحه الله إياها، وليس في المؤسسات والقوانين التي وضعها الإنسان. فإذا أزيل طغيان عمره خمس وثلاثون سنة فستنمو الديمقراطية مكانه؛ لأن الناس في كل مكان يريدون الحرية. لم يكن هناك احتمال للدمار النفسي. كان العراقيون خارج التخطيط.

فيما يخص رامسفيلد كانت هذه النظرة مريحة أكثر من أي شيء آخر، حيث لم يكن في عمله ما يوحي بأنه قد فكر في الموضوع. أما فيما يخص الآخرين، بمن فيهم أولئك العاملون تحت إدارته في البنتاغون، فقد كانت هذه النظرة أمراً مسلماً به، وحين استخدم منتقدوه كلمة «أمر ديني»، كما كانوا يفعلون في الغالب لوصف نهج المحافظين الجدد في نشر الديمقراطية في المنطقة لم يكونوا مخطئين تماماً. كان هذا الإيمان يتحدى التاريخ، والدليل الحي الذي بثته قناة CNN. وقد أدى إلى تدمير جميع المؤسسات المهمة وإحراقها في الدولة العراقية.

استخدمت إستراتيجية الجنرال فرانكس المبتكرة قوات كافية لاقتحام البلاد، لكنها لم تكن كافية بأي شكل لتأمينها. ومع ذلك، كان من الممكن بجهد منظم إيقاف أكثر الناهبين فظاعة، وتحذير الآخرين بإظهار القوة. لكن هذا لم يحدث. وقد رجا الموظفون في المتحف؛ دون جدوى قائد فصيل قريب من الدبابات أن يوقف إحدى الدبابات عند مدخل المتحف لإخافة السارقين الذين كانوا يسرحون ويمرحون بالتحف الفنية القديمة للبلاد. وقف الجنود دون أوامر بالتدخل، بينما كان الرجال والصبيان يسحبون أجهزة الحاسوب، والطابعات، والمكاتب، والخزانات، والسجاد، وأخيرات التوصيلات والأنابيب من الوزارات، وغيرها من المباني الحكومية، ويأخذونها في الشاحنات، والسيارات، والعربات، وعلى ظهورهم. في السجل الحربي لقائد فرقة مشاة، تزخر الأيام التي سبقت سقوط بغداد بالأحداث. لكن فجأة بعد 9 نيسان، تصبح العناوين مختصرة للحد الأدنى: «ما من شيء مهم يذكر. بقينا

في المطار طوال اليوم نقوم بعمليات الصيانة والإصلاح». كان الأمر كما لو أن الهدف الوحيد هو سقوط المدينة. استخدم مسؤول في الإدارة كان قد خدم في فييتنام عبارة «هدف القادة» أي تفكيرهم الذي وصل عبر السلسة حتى الجنود على الأرض: «لقد وصلوا إلى هناك فجأة، ولم يكن هناك هدف. لم تكن هناك قواعد للاشتباك. تم ترك كل شيء للمعركة. وجلس القادة دون أن يفعلوا شيئاً حيال ذلك». في تلك الأثناء تجاوز الدمار الذي شهدته المدينة ومؤسساتها المهمة على يد سكان بغداد أنفسهم، الدمار الذي أحدثته التفجيرات ونيران الحرب بكثير. وفيما بعد أصر بعض العراقيين على أنهم قد شاهدوا جنوداً لا يسمحون فقط للسارقين، وإنما يشجعونهم، وكأن الفوضى كانت احتفالاً سعيداً بسقوط النظام. كانت هذه وجهة نظر وزير الدفاع. تمت حماية وزارة النفط فقط.

لم يتم إعلان القانون العسكري: ولم يُفرض حظر التجوال مباشرة. لم يقل أحد للعراقيين أن يبقوا في بيوتهم أو يذهبوا إلى أعمالهم. لكن دوغلاس فيث أصر علي فيما بعد أن الجيش فرض سلطته منذ البداية. «حين سقطت حكومة صدام، كان سيصبح من الضروري إصدار البيان الأول»، قال فيث: «لكن في التاريخ العراقي، كلما حدث انقلاب، كان أحدهم يصدر بياناً رقم 1. لذلك قررنا أننا لا نريد ذلك، فقد غيرنا الاسم إلى «رسالة حرية». وأشار فيث إلى أن رسالة الحرية أعلنت حتى عن إنشاء سلطة التحالف المؤقتة، التي يفترض معظم الناس أنها بدأت مع وصول بول بريمر في أيار. لكن هذا لم يكن إلا نوعاً من الذكاء القانوني الذي دعا تومي فرانكس مرة للاستنتاج بأن فيث كان «أغبى رجل على وجه الأرض». فلو استلم أحد في العراق بالفعل نسخة وقرأ التصريح الصادر بتاريخ 16 نيسان من القيادة المركزية في قطر من الرجل الذي كان مسؤولاً –الجنرال فرانكس نفسه– لم يكن له أي أثر ملموس في شوارع بغداد. لم تخفَ النتائج على العراقيين، بمن فيهم الخصوم المحتملون. «نحن عاجزون، فيما يتعلق بهم»، قال نوح فيلدمان، أستاذ القانون بجامعة نيويورك الذي ذهب إلى بغداد بصفة مستشار دستوري لسلطة التحالف المؤقتة: «كان مفتاح هذا كله هو النهب. لقد حدث ذلك عندما اتضح عدم وجود نظام. هناك مثل عربي يقول: أربعون سنة من الديكتاتورية خير من يوم واحد من الفوضوية». وأضاف: «هذا أيضاً ما جعلهم يعرفون

أن بإمكانهم أن يحاربونا، وأننا لا نشكل قوة ذات أهمية».

حين أمر صدام بإطلاق سراح عشرات الآلاف من المعتقلين من سجن «أبو غريب» وغيرهم من السجناء في تشرين الأول 2002، انطلق سيل السجناء من خلف الجدران دون حراس السجن الذين تم اُكتُسِحوا وتزاحموا حتى قتل عدد من الناس في لحظة الحرية. ولفت نظر الصحافيين الذين غامروا بالدخول إلى السجن الروائح المروعة للناس المحتجزين مدة طويلة. وبعد ستة أشهر، حين اقتحم الغزو الأمركي أخيراً سجن عراق صدام، كان السيل بالشدة نفسها، وكانت رائحة عقود من القمع بالقوة نفسها. وحين رأوا أن أحداً لن يوقفهم، ارتكب المزيد والمزيد من العراقيين الأخطاء وقاموا بأمور سيئة، إلى أن تحولت الفوضى المدنية إلى عنف متفشٍ، ارتكب معظمه عصابات مجرمة من السجناء الذين أطلق سراحهم: سرقة سيارات، وخطف، واغتصاب، وجرائم قتل، وتصفية حسابات من جميع الأنواع، وبعد ذلك بوقت قصير، هجمات متقطعة على القوات الأمريكية. ولا يزال العراقيون يشيرون إلى غنائم النهب بالاسم الذي أطلقه صدام على هذه الحرب: الحواسم.

وأخيراً، قام المحاسبون القانونيون في الإدارة بحسابات تقريبية للكلفة الاقتصادية للنهب في تلك الأسابيع الأولى. كان الرقم الذي وصلوا إليه 12 مليار دولار، مع حذف العوائد المتوقعة من العراق للسنة الأولى بعد الحرب. وستبقى المباني المنهوبة والتجهيزات المفقودة، والسجلات المدمرة، والبنية التحتية المخربة، ملازمة لكل جانب من جوانب إعادة الإعمار تقريباً. لكن الأضرار المادية كانت أقل كارثية من تلك الآثار التي لا يمكن قياسها. فقد كانت تجربة العراقيين الأولى للحرية فوضى وعنفاً؛ وقد حمل وصول الأمريكيين نهاية حقيقة الإرهاب السياسي، لكنه في الوقت نفسه أطلق العنان لمخاوف جديدة أقل تأكيداً.

أبقت الفوضى غارنر وفريق مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية عالقين في الكويت أسبوعين. لم يكن غارنر قادراً على الحصول على تصريح من فرانكس بالطيران إلى بغداد حتى 21 نيسان، أما معظم الآخرين فقد سافروا براً في 23 نيسان في قافلة من عدة مئات من سيارات سوبربان، مجتازين الدبابات المفجرة وأكواباً من جعب الـ MRE الفارغة، وحشود العراقيين، بعضهم يلوح، وبعضهم يحدق بنظرات غير ودية، وبعضهم مشغول بالنهب، حتى وصلوا في ساعة الازدحام إلى جنوب بغداد. تحركوا إلى داخل القصر الجمهوري على الضفة

الغربيـة لدجلة؛ لأنه كان في حال أفضل بعـد الحرب من أي مبنى حكومي مناسب آخر، على الرغـم مـن أن القصر، حتى لم يكن فيه ماء في البدايـة ولم يكن فيه كهرباء أو هواتف تعمل أو حتـى زجـاج للنوافذ. كان كل شيء مكسواً بنصف إنش مـن الطين الأصفر، وعلى البلاط كانـت آثار أقـدام الجنود الذين احتلـوا القصر قبـل أسبوعين. كان هنـاك لحم متعفن في المطبخ، وكان نصـف المراحيض مسدودًا بالفضلات البشرية. وبجانب المرآب، كانت القوات الأمريكيـة قد حولت سيارات فوكسهول العراقية الحربية إلى قبور غير عميقة. كان من أولى أفكار درو إردمان تركيب زجاج للنوافذ؛ لمنع البعوض من الدخول.

كان غارنر مذهولاً لحجم النهب في بغداد. ففي كردستان عام 1991، كان النهب خفيفاً نسبياً (بالرغم من أنه كان شديداً وعنيفاً في الجنوب). لكن بعد قضاء أربع وعشرين ساعة في بغـداد، سافر غارنـر إلى الأراضي الكردية، حيـث كان يعرف النـاس والتضاريس، وتم الترحيب به على أنه بطل. كان لا يزال يخوض الحرب السابقة. التقى بالقائدين الكرديين، مسعود بـرزاني وجلال طالباني؛ لمناقشة التسليم السياسي، حيث سيشكل الأكراد وغيرهم مـن زعماء المعارضة الذين كانوا في المهجر -بمـن فيهم الجلبي- مجموعة قيادة في بغداد، مـع بعض الأشخاص «الداخليين» أي: عراقيين مـن داخل البـلاد. كان المغتربون يحاولون الاتفـاق على هيـكل للحكم منذ مؤتمر لندن. قـال لي غارنر حـين زرت مكاتبه القريبة من البنتاغـون في خريف عـام 2003: «وافترضت في ذلك الوقت، ولا أدري إن كان هذا صحيحاً أم لا، أن هـذا كان مجـرد تمديد لتلك المحادثات ولـكل العمل الذي تم». وحالما أصبح هناك وجـوه عراقية لـدى الأمريكيـين، كان الأمريكيون قادرين علـى إلقاء المسؤوليـة إليهم دون التخلـي عـن السلطة. أطلق غوردون رود، المؤرخ العسكري، علـى غارنر لقب «القائد العالمي غـير الرسمي»، ووصف غارنر تحركاته في العراق، وكأن المكون السياسي قد ترك لمؤسسته، وقد سألت إن كانت تعليماته من البنتاغون، فقال: «لم أتلقَ أي اتصال من أحد يقول: لا تفعل ذلك، هل تتبعني؟».

لكـن الجلبي اختصـر الخطة. فحسـب السياسي العراقـي البارز الـذي كان قريباً من المفاوضات، قاوم رئيس المؤتمر الوطني العراقي، والقائد الشيعي محمد باقر الحكيم، الذي قتـل في سيارة مفخخة خارج المرقد المقدس في النجـف، توسيع مرتبتيهما أكثر من الدائرة

الأصلية. وكان هذا أقرب إلى فكرة وزارة الخارجية الأمريكية لحكومة انتقالية، مقرها خارج العراق: «إذا أصبحت مجموعة مؤلفة من خمسة وعشرين شخصاً تضم خمسين شخصاً فإن تأثيرها سيضعف. إنهم يريدون بشكل رئيس أن يتحكموا بمن سيكون هناك»، قال السياسي: «المغتربون ارتكبوا خطأً كبيراً، فباعتقادهم أن الأمريكيين في صفهم، ظنوا أنهم يستطيعون أن يأتوا إلى بغداد على متن دبابة أمريكية، وأنهم سيحصلون على الشرعية. لكن الأمور لا تجري على هذا النحو. كان فرضهم على العراقيين خطأً فادحاً. فقد كانوا سيعرفون فوراً بوصفهم مندوبين للولايات المتحدة».

كان البنتاغون يواصل المحاولة. ودون إعلام البيت الأبيض أو القادة العسكريين، جعلوا الجلبي وسبع مئة من أتباعه يسافرون -بملابس وأسلحة أمريكية- من شمال العراق إلى الصحراء خارج الناصرية. كانت الفكرة إعطاء الجلبي بداية جيدة في السباق نحو السلطة. وجد الجلبي وأتباعه طريقهم إلى بغداد، وتمركزوا في نادي الصيد الوحيد في منطقة المنصور الراقية (حيث ما لبث هارولد رود أن لحق بالجلبي)، وبدؤوا بالاستيلاء على الأملاك. وانتهى الأمر بإحدى سيارات عدي حسين من طراز فراري إلى أن تركن خارج البيت الذي احتله مساعد الجلبي الوسيم، نبيل الموسوي. وبعد أن ساءت الأمور في العراق، ألقى الجلبي ومكية وحلفاؤهما في الإدارة الأمريكية اللوم على وزارة الخارجية؛ لفشلها في إيقاف النهب، وفرض النظام في بغداد، واتهموها بأنها وضعت الخطط لتدريب ستة آلاف مغترب عراقي. وكان هذا عذراً أكثر من حجة. فقد اختفى الجيش والشرطة العراقيان: «اختفت الدولة»، قال إيردمان: «فإما أن الناس ذابوا أو أنهم أذابوا المؤسسات». كان هذا بالضبط ما زعم المؤتمر الوطني العراقي أنه لن يحدث، وكان الفراغ السياسي أوسع كثيراً من أن يملأه عدة آلاف من المغتربين العراقيين نصف المدربين، الذين كان كثير منهم غرباء عن بلدهم سنين أو عقوداً من الزمن، وقام أولئك الذين سافروا مع الجلبي بالمشاركة في أعمال النهب بدلاً من إيقافها، وقد حذر غوردون رود غارنر من أن القوات العراقية الحرة قد بدأت تصبح «مجموعة من قادة الحرب». فقال غارنر الذي كانت نظرته إلى الجلبي تتغير بسرعة «غوردون، أنا لا أحب هذه الكلمة». أما أهل البلد فلم يستقبلوا المغتربين بصورة حكام طبيعيين للعراق الحر. أما إجابات المحافظين الجدد عن كل سؤال

صعب حول مرحلة ما بعد الحرب، وعبارة الهروب المبدعة التي وضعت في معهد المشروعات الأمريكي، وصحيفة Wall Street Journal ومكتب الخطط الخاصة، فقد انهارت في بغداد، بينما كانوا يشربون النخب في واشنطن.

وفي إحدى الأمسيات قادت باربرا بودين، التي كانت مسؤولة اسمياً عن بغداد، سيارتها في المدينة المدمرة مع الجنرال ديف ماك كيرنان، قائد القوات البرية في العراق، عبر نقطة تفتيش يقوم عليها رجال الجلبي، إلى بيت في منطقة راقية. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية، في محاولة لمعارضة خطة البنتاغون بتسليم قريب للسلطة للمغتربين، قد نظمت اجتماعاً لبودين وماك كيرنان مع خمسة عشر أو عشرين رجلاً من رجال الأعمال والأكاديميين والقضاة المحليين. وسرد البغداديون واحداً تلو الآخر قصص حياتهم داخل العراق، في ظل حكم صدام. ثم وصل أحدهم إلى النقطة: «هل يمكن أيها الأمريكيون أن تفرضوا النظام العسكري لو سمحتم؟ هناك فوضى في الخارج. نحن لا نريد استبدادية، لكننا نحتاج إلى سلطة». وبينما كان الاجتماع جارياً، وقد وقف حرس السلطات الأمريكية المدنية والعسكرية في بغداد في الخارج، قام عدد من رجال ميليشيا الجلبي بسرقة سيارة الضيف، والسائق بداخلها، وكأن ذلك كان لتأكيد ضرورة هذا الرجاء.

كانت القوات الموجودة تحت قيادة ماك كيرنان تقف بلا حراك في أثناء نهب بغداد، وكان قد أعطى تعليمات لكبار ضباطه بأن القتال يجب ألا يقطع بالتخطيط لما بعد الحرب، ولم يقم بتعديل التعليمات إلا في 19 نيسان. لكن ما حدث في بغداد أشعر ماك كيرنان أخيراً بخطورة الموقف. وفي اليوم الآتي، كتب أمراً موجزاً يعلن التحالف «سلطة عسكرية» في العراق. وقد نقلت بودين الأمر إلى الخارجية الأمريكية، وذهلت عندما علمت أن هذا الأمر كان هو التأكيد الأول للمسؤولية القانونية، بموجب معاهدات جنيف. كانت خطابات الإدارة الأمريكية عن الحرية قد أصبحت غطاءً للتخلي عن التزاماتها تجاه العراقيين، وكان من شأن ذلك إيجاد ظروف لا بد أن تهدد القوات ذاتها. لكن أمر ماك كيرنان لم يدعمه رامسفيلد في واشنطن، ولا فرانكس في قطر. وأصبح أحد الإخفاقات النبيلة لتلك الأيام الأولى التي لا يمكن أن تعود.

كان الجنرال فرانكس وقادته يريدون الخروج من العراق بأسرع وقت ممكن. علق

رامسفيلد انتشار فرقة الفرسان الأولى في العراق، وأعطى أمراً بانسحاب مستعجل للقوات في منتصف نيسان. وفي أول أيار كان البنتاغون يتوقع أن يصبح مستوى القوات في البلاد أقل من ثلاثين ألفاً بنهاية الصيف، على افتراض أن الدول التي لم تدخل الحرب بعد ستبدأ بالإسهام بقواتها. كان كل شيء سينقلب على مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، الذي كان عبارة عن طاقم هيكلي، وغير منظم، ومعدماً يتألف من أقل من مئتي مدني غير مسلح يجولون وسط غبار القصر الجمهوري وظلامه؛ بحثاً عن زملائهم؛ لأنهم لم يكن لديهم هواتف يتصلون بها مع بعضهم. كان مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية سيخرج رامسفيلد وفرانكس من العراق. وكانت الفكرة في واشنطن وقطر هي: استلم يا جاي. اتخذ التنسيق العميق الآن شكلاً ملموساً أكثر بوصفه معطلاً للجهود.

لم يكن هناك عدد كافٍ من الحرس العسكري لتوفير الأمن، ولذلك تمكن أفراد مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية من مغادرة القصر، والخروج إلى المدينة؛ للبحث عن عراقيين يمكن العمل معهم. وعلى الرغم من أن خدمة الهاتف كانت سيئة في جميع أنحاء العراق، لم يرَ الضابط العسكري المسؤول عن الاتصالات سبباً يدعو لإعطاء رؤساء الجامعات هواتف تتصل بالأقمار الصناعية. لم يكن هناك مكان قريب بما فيه الكفاية يمكن أن يوجد فيه المترجمون. قال تيموثي كارني، الذي كان ضابط خدمة خارجية استدعاه وولفوفيتز بعد تقاعده للعمل في العراق: إن الجيش ببساطة لم يفهم أو يهتم لما يفترض أن يقوم به مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، «بدا الأمر كما لو أن هؤلاء الناس لا يملكون أدنى فكرة عما كان على جاي غارنر أن يفعله. لم تعطِ أي أولوية للجوانب الرئيسة للمهمة».

دون أي معلومات مهمة تقريباً، حاول إيردمان والآخرون في الإدارة المدنية العثور على أعلى الموظفين رتبة من النظام القديم لا يزالون بخير -ولو لطردهم فقط-، خرج عدد قليل من العراقيين المناصرين إلى أعمالهم على أمل أن يمر بهم مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية. كان استمرار عمل الدولة يعتمد تقريباً على اجتماعات عشوائية في أنحاء المدينة -في المناطق التي لا تكثر فيها الاشتباكات المسلحة- بين بيروقراطيين عراقيين، وبين الغرباء الواصلين حديثاً. ويتذكر إيردمان هذه اللقاءات وكأنها حلقة من مسلسل (رحلة النجوم).

وكأن العراقيين كانوا يقدمون أنفسهم إلى أناس من كوكب آخر.

أما في واشنطن، فقد كان ميتشل دانييلز، مدير مكتب الإدارة والميزانية، ومساعده روبين كليفلاند مصممين على تقليل نفقات مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، بحيث يمكن المحافظة على التنبؤات المالية الوردية للإدارة الأمريكية لإعادة إعمار العراق، وكانت النتيجة أن الفرق الوزارية في بغداد لم تحصل مبدئياً إلا على خمسة وعشرين ألف دولار لإحياء الإدارة العراقية المدمرة. حتى هذا المبلغ لم يكن نقدياً - فقد كان التمويل يحتاج إلى طلبات منح تحتاج إلى عدة أسابيع للحصول على الموافقة. كان إيردمان يتطلع إلى حفنات الدولارات التي قامت بوساطتها القوات الخاصة في أفغانستان بمشروعات كبيرة، وكسبت التعاون في الأيام الأولى الحرجة، قبل أن تغلق تلك النافذة، «إعادة الإعمار بعد القتال، يجب أن تكونوا قادرين على إرسال الموارد فوراً»، قال إيردمان: «فالناس في الوضع اليائس يحتاجون إلى المساعدة. تلك رؤية واضحة وضوح النهار. وإلا فإنهم سيتجهون إلى مكان آخر في حال عدم تقديم المساعدة لهم».

عاد غارنر من كردستان، وهو لا يزال يحاول تنفيذ خطة البنتاغون، وفي 28 نيسان، وقف بقميصه البولو ذي الياقة المفتوحة أمام اجتماع لـ 350 عراقياً في مركز المؤتمرات العراقي، الذي كان ممتلئاً بالزجاج المكسور والحطام. لم يكن هناك جدول أعمال. وقد قرأ مكية، الذي عاد إلى مسقط رأسه للمرة الأولى بعد خمسة وثلاثين عاماً؛ بحثاً حول الحاجة إلى دستور ليبرالي لحماية الحقوق الفردية. وحين انتهى وقف أحد شيوخ العشائر، وقال: «ليس لدي ماء ولا كهرباء ولا أمن، وأنت تتحدث عن دستور؟» وسأل شيخ آخر غارنر: «من المسؤول عن سياستنا؟».

«أنت المسؤول»، أجاب غارنر. كان في القاعة زفير مسموع. وقد أدرك نوح فيلدمان، المستشار الدستوري، فيما بعد: «في تلك اللحظة كانوا يفقدون ثقتهم بنا». فالعراقيون الذين كان من الممكن أن تكون أي إشارة لمبادرة فردية قاتلة لهم في عهد صدام، كانوا ينتظرون أن يقال لهم ما يمكن أن يحدث بعد ذلك، ولم يخبرهم أحد. اقترب رجل عجوز في حي شيعي من فيلدمان، وسأله: من الذي يدير العراق؟، لكن لم يبدُ أن أحداً

كان يعلم.

لكن الأخبار المزعجة كانت تبدأ بالتسرب إلى واشنطن. وفي 6 أيار أعلن بوش أن الديبلوماسي السابق والخبير في مكافحة الإرهاب ل. بول (جيري) بريمر الثالث سيحل محل جاي غارنر في بغداد. (كان رامسفيلد قد أخبر غارنر الذي دهش وجرح، في 29 نيسان، أنه فاشل). يزعم البنتاغون باستمرار أن هذا التغيير كان مخططاً له منذ البداية. لكن الفكرة الأصلية كانت أن يأتي مدني أقل كفاية فيما بعد، بصفة مندوب سام لما سيكون حكومة انتقالية. قال لي بريمر: «كان لدي عشرة أيام للاستعداد للمجيء إلى هنا». كان بريمر مقبولاً لرامسفيلد بوصفه متشدداً، وكان اختياره يمثل هدنة قصيرة بين وزارتي الدفاع والخارجية. لم يقم أحد في الإدارة الأمريكية بتفسير القرار الذي أدى إلى مغادرة غارنر بسرعة، على الرغم من أنه شكل تحولاً مفاجئاً نحو سياسة أكثر عقلانية. وقد استنتجت باربرا بودين، التي طردها رامسفيلد قبل مجيء بريمر، أنه لم يكن في العالم سوى شخص واحد له المعرفة والنفوذ والتأثير؛ ليشير على بوش أن العراق كان ينزف، وأن هذا النزيف يجب أن يتوقف: هذا الشخص هو طوني بلير.

في 10 أيار سافر غارنر إلى قطر لإطلاع بريمر على الوضع. وحين ذكر غارنر أنه سيكون هناك اجتماع مع القيادة العراقية بعد عدة أيام، نظر إليه بريمر وقال: «ربما لن يحدث ذلك». وجد غارنر بريمر بارداً، وتخيل أن بريمر عده الرجل الذي أفسد الأمور في العراق. كانت مدة وجودهما معاً في العراق عصيبة، وكان غارنر مصمماً على أن يجعلها أقصر ما يمكن.

في 12 أيار وصل بريمر إلى بغداد، وهو يرتدي بذلة قاتمة. وكانوا يدعونه «السفير بريمر». وبعد ثلاثة أسابيع، عاد جاي غارنر إلى الوطن بهدوء. وأخذه رامسفيلد إلى البيت الأبيض لمحادثة أخيرة مع الرئيس. كان غارنر قد كتب مذكرة من صفحتين لبوش ورامسفيلد، بتاريخ 27 أيار، تصور العراق على أنه بلد يسير نحو الاستقرار وليس بينه وبين إعادة إعماره كاملاً إلا عدة أسابيع. وقد جعلت هذه الأخبار الجيدة من السهل على بوش أن يشكر غارنر بلطف على العمل الذي قام به. أما غارنر، فقد أكد بدوره للرئيس أنه قد اختار شخصاً ناجحاً رائعاً عندما اختار بريمر. فقال بوش: «لست أنا من اختاره، وإنما

رامسفيلد». كانت هذه الأخبار صدمة لغارنر، الذي لقبه رامسفيلد مرة برجله في العراق.

استمر الحديث خمساً وأربعين دقيقة، حضر تشيني ورايس النصف الثاني منه، ومع ذلك لم يتسنَ للرئيس أن يسأل غارنر عما كان عليه الوضع بالفعل في العراق، لمعرفة المشكلات التي تنتظرهم في الأسابيع أو الأشهر القادمة. حين عاد غارنر من شمال العراق عام 1991، بعد عملية تأمين الحماية، أجاب عن أسئلة مدة أربعة أو خمسة أيام. أما هذه المرة، فلم يبدُ أن بوش أو تشيني أو رامسفيلد أو رايس يعطون أي اهتمام لما كان عليه أن يقوله، ثم داعب الرئيسُ غارنرَ في نهاية الاجتماع بقوله: «هل تريد أن تعمل في إيران في المرة المقبلة؟».

«لا، سيدي، أنا والشباب نحتفظ بجهودنا لكوبة».

ضحك بوش ووعد غارنر والشباب بكوبة. وانتهى الاجتماع. صافح غارنر الرئيس، ثم نائب الرئيس الذي لم يقل شيئاً طوال الوقت، ورأى ابتسامة تشيني الصغيرة الشريرة حين كان يغادر. غادر غارنر ولديه انطباع بأن بوش لا يعرف إلا ما يسمح تشيني بوصوله إلى مكتبه. وفي حزيران 2003 كان أي شخص يستمع إلى محادثة بين المسؤولين الذين يحملون المسؤولية الأكبر في العراق، لا يستطيع إلا أن يستنتج أن عملية تحرير العراق حققت النصر.

في بغداد، تم حل مكتب إعادة الإعمار ليصبح ضمن سلطة التحالف المؤقتة. أما بريمر الذي حصل على منصب مبعوث رئاسي، بموافقة رسمية، بقرار من مجلس الأمن الدولي، وقائد السلطة التي لم يحصل عليها غارنر قط، فقد جعل الناس يعلمون أنه كان مسيطراً على الوضع. كما تم حل الجيش العراقي بسرعة، واستبعاد جميع أعضاء حزب البعث الذين كانوا يشغلون المستويات الأربعة العليا من الخدمة في الحكومة، وسحب السلاح من ميليشيا الجلبي، وتجميد تشكيل الحكومة الانتقالية. حتى إنه جرى الحديث عن إطلاق النار على السارقين، على الرغم من أن هذا لم يحدث. ومدد البنتاغون انتشار الفرق التي أرهقتها المعارك. وأصبح ما كان ينظر إليه على أنه تحرير سريع احتلالاً طويل الأمد.

كان درو إيردمان لا يصبر على أي انتقاد سهل للتخطيط. وكان يصر على الظروف الفعلية التي كان على المخططين أن يعملوا بها مردداً كلمات بطله مارك بلوش. وحين ذكرت

الدليل الذي أعده الجيش الأمريكي من أربع مئة صفحة لاحتلال ألمانية، أجاب أنه حسب الوقت الفعلي المتاح، ستكون المقارنة بالعراق عادلة أكثر مع وقت الحرب للاحتلال الفرنسي لشمال إفريقية، الذي تعرض للمشكلات، حتى كاد يكلف الجنرال آيزنهاور عمله. أما فيما يخص العراق فقد كان أي تخطيط أمراً معقداً: كان على الإدارة الأمريكية أن تستعد لتأثيرات الحرب التي لا تزال تدعي أنها تريد تجنبها. «كيف كانت العملية الديبلوماسية في الأمم المتحدة ستتم لو قال الناس: إن الرئيس يخرج الناس من وزارتي الزراعة والاقتصاد؛ ليستولي على الدولة العراقية كاملة؟ هذا هو المنطق السياسي الذي يعمل ضد التخطيط المسبق».

لكن فشل الإدارة الأمريكية في الأسابيع التي أعقبت سقوط بغداد الذي حدد مسار العراق بعد صدام، ولا يزال يطارد الجهود الأمريكية اليوم، لم يكن كله نتيجة للمعوقات والأخطاء. لقد كان متعمداً بشكل ما. إذا لم تكن هناك خطة شاملة لما بعد الحرب، فهذا لأن الناس الذين يعنيهم الأمر في واشنطن لم يكن لديهم أي نية للبقاء في العراق. قال مسؤول في وزارة الدفاع: «لم يصدق رامسفيلد وولفوفيتز وفيث أن الولايات المتحدة ستحتاج إلى إدارة ما بعد الحرب في العراق»، «كانت خطتهم تقضي بتسليم الأمر لهؤلاء المغتربين بسرعة كبيرة، وتركهم يتعاملون مع الفوضى التي ستظهر. كان غارنر رجلاً مغفلاً لإستراتيجية سيئة. كان يفعل بالضبط ما أراده رامسفيلد أن يفعل. كانت تلك إستراتيجية فاشلة».

كان أهم المستفيدين من الإستراتيجية الفاشلة أولئك العراقيين الذين لم يهتموا بالسماح لظهور مجتمع جديد في العراق، بتوجيه أمريكي، من أنقاض عراق صدام. وحين بدا أنهم هزموا، كانوا قد بدؤوا قبلاً بإعادة التجمع. كتب رائد عسكري اسمه إشعيا ويلسون الثالث، وهو مؤرخ لعملية تحرير العراق في مجموعة بحث شكلها الجنرال شينسكي، فيما بعد، في دراسة ليست معدة للنشر: إنه عندما أدرك قادة الجيش في أواخر أيار أن عليهم البقاء في العراق، وبحثوا عن خطة لما بعد الحرب، كانت الإجابة «هي الصمت. لم تكن هناك خطة لمرحلة رابعة». تابع الجنرال فرانكس الرجل المسؤول عن هذا الفشل المغادرة في أيار وتقاعد في الصيف للعمل في مجال إلقاء المحاضرات، وكتابة مذكراته، وجمع الميداليات الرئاسية للحرية، تاركاً وراءه عشرات الآلاف من الجنود الذين كان قد قادهم إلى العراق؛ ليتابعوا

خوض حرب يصعب إحراز النصر فيها، وتابعت دراسة الرائد ويلسون: «في الشهرين أو ثلاثة الأشهر للانتقال الغامض، فقدت القوات الأمريكية تدريجياً الزخم والمبادرة التي كانت قد كسبتها على العدو الذي فقد توازنه. وفي هذا الهدوء قبل العاصفة الآتية، كانت أعين الجيش الأمريكي على الموانئ، بينما كانت أعين الموالين للنظام السابق والمتمردين الناشئين على الشعب. ومنذ ذلك الحين لا تزال الولايات المتحدة وجيشها وتحالفها يمارسون لعبة الغميضة».

ومع ذلك لم يهتز إيمان المخططين بإستراتيجيتهم. في خريف عام 2003، اقترب ديك تشيني من زميله مدة طويلة كولن باول، ووضع إصبعه على صدره وقال: «لو لم تفرض المؤتمر الوطني العراقي والجلبي، لما كنا في هذه الفوضى». لكن تشيني لم يصدق أن التخطيط لما بعد الحرب سيؤثر في النهاية على أي حال. كان لدى تشيني، شأنه شأن الرئيس، ثقة داخلية في القوة العسكرية الأمريكية وعدم اكتراث معلن لتفاصيل خسائرها البشرية. كتب بوب وودورد في كتابه خطة الهجوم: «كان يظن أن بوش قد أدرك كيفية التركيز على ما هو أساس ومهم، وأين يقضي وقته»، «لم يضِع الرئيس الوقت في الأمور التافهة. ففي الأشهر الـ 16 التي قادت إلى الحرب كان يركز على الخطة العسكرية».

أما ما يتعلق بخطة ما بعد الحرب، فلم يكن هناك داعٍ للقلق؛ فقد كان الرئيس قد سمع سلفاً ما أراد أن يسمعه (من نائبه ومستشارة الأمن القومي، ووزير الدفاع ونواب وزرائه، ومن كنعان مكية وغيره من المغتربين، ومن أنصاره المتحمسين في مجالس الخبراء وفي الصحافة، ومن ثقته في شمولية الرغبة البشرية بالحرية). ولذلك لم يكن لدى الأمريكيين فرصة للتفكير في الصعوبات الحقيقية، وفي تكاليف تغيير النظام في العراق.